فـريـدة

فـــريـــدة

روايـــــــة

رضـــوى مـوافـــــي

فـــريـــــدة

روايـــــــة

اسم الكاتبة: رضـوى مو افـي
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية للنشروالتوزيع
تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى
رقم الإيداع: ١٤٥٧٣ / ٢٠١٨
طبعت بمطبعة الشروق

حقوق التوزيع

Facebook.com/arabiclibrary2017

إهداء:

إلى ذلك المنحدَرِ الذي حطّمني وكسر كلَّ شيءٍ فيّ...
شكراً لأنك جعلتني أعيد بناء نفسي كما ينبغي لها أن تكون.

"أجمل الأشياء هي تلك التي يوحي بها الجنون ويكتبها العقل".
(أندريه جيد)

أعلم لمَ أنت هنا الآن... ربما هو الفضول الذي يدفعك لإثبات شيء ما لنفسك التي لا تَكِلُّ من الطموح، ولذاتك التي لا تتعب من التمني رغم مرورها باستراحات اليأس مراراً... ولقلبك الذي توقف منذ زمن ثم عاد لينبض من جديد... ولحُلمك القديم الذي تبخر مع شروق شمس حلم جديد... ولوعدٍ قطعته ولم توفِّ به، ولصورةٍ محفورة بذاكرتك.. ولتاريخٍ يتكرّر كل عام كأنه عامه الأول ولا تستطيع هجره.. ولشخص لم يعد موجودًا بحياتك لتلك النقطة السوداء بداخلك. تريد أن تثبت أنّك ما تزال على قيد حُلمك.. على قيد حياتك تتشبَّثُ بالأمل حتى ولو كان ضئيلًا!

تريد أن تثبت نجاحاً قد راهنتَ عليه ذاتك كل ليلة، قبل أن تنعم بليل طويل مليءٍ بالأحلام البائسة التي لا جدوى منها.

أنت هنا لأنك مشتّت... قد تكون لا تعلم ما تريد وربما العكس... لكنك لست على استعدادٍ تام حتى تخوضه... لا داعي لأن تشرح ما بداخلك الآن.

فأنا أستطيعُ أن أرى غبار المعارك بداخلك من هنا...

فقط أريدك أن تريح ظهرك قليلًا للخلف...

استنشق هواءً كثيرًا... أغلق عينيك... أخرجه من فمك ببطء... جيد أنت فحتمًا قد عصفت بمعظم ما يجول بخاطرك... الآن أريد أن أطرح عليك سؤالاً...

ما الذى يشغل تفكيرك ولا يمكنك إزالته؟

ربما ستخبرنى بشيءٍ قد أسعدك يوماً...

وربما شيء سبب لك ألمًا...

لكن أرجح أنك ستقول: "لا شيء".

* ٥ سبتمبر ٢٠١٥

على مائدة طعام بيضاوية مؤلفةٍ من أربعة مقاعد.

جلس (مروان) ومريم يتناولان إفطارهما استعداداً لخوض يوم عمل جديدا... فيما آثار فضول (مروان) ملفٌ بداخله أوراق عمل مريم... التقط إحدى الورقات وأخذ يقرأ وبيده الأخرى فنجانٌ من الشاي... رشف منه رشفة وبعينه نظرة استنكار!

- ما سبب إيمان معظم الناس في الوقت الحالي بالدجل والسحر؟!

هل لأن ذلك يعود للفطرة؟!... أو لليأس الذي أحاط قلوبَ الجميع في الآونة الأخيرة؟! أو لأسباب نفسية لا نفقهها بعد؟! ممم... أعمال جلب الحبيب تؤدى إلى كوارث وذلك لتحدى القدر والقسمة والنصيب. قال ذلك (مروان).

- ممم أرجح أن لكل تلك الميول دو افع نفسية.

- ممم ومالو... سيبتي مقالات التاريخ والأدب واشتغلتي دكتورة نفساوية.

فنظرت له بدون أن تعقب على كلامه، وأردف هو متابعاً:

لا واإه بتكتبي وعايشة الدور فعلا... بتجيبي الغرور ده منين يا مريم يا مدحت؟

أنهى فنجانه وأخذ يرتدي جاكيت بدلته... وأردف ساخراً: خليكي في الهبل اللي بتكتبيه ده لحد ما يطلعلك عفريت.

(مروان) مهندس ديكور... يسبق (مريم) بخمسة أعوام... تزوجا منذ عامين بناءً على رغبة "الست الوالدة".

منذ أن بدأت (مريم) بشق طريقها في مجال الصحافة مبتعدة عن وظيفة "ست بيت" وهو لا ينفك يبث سمه في وجهِها عن أي عمل تقوم به، أو بكتابته فهو لا يريد أن يراها أكثر نجاحاً منه على كل حال!

التفتتْ (مريم) لتصبح بمواجهه (مروان)...

- أولاً ما اسمهاش نفساوية.

- ثانياً أنا مش مغرورة.

- ثالثاً ما خدتش رأيك. دي حرية شخصية ما أحبش أنك تتدخّل فيها.

رفع (مروان) حاجبه الأيسر في تعجب وغيظ.

- أنا جوزك يا أستاذة ومن حقي أقول اللي انا عايزه.

- جوزي!

أنا عمري ما حسيت انّك جوزي وانت عارف ده كويس، بص يا (مروان)، احنا اتكلّمنا في الموضوع ده كتير وما أظنّش حابب نتكلّم ونجرح بعض تاني.

وسحبت (مريم) أور اقها وحقيبتها وآلامها بعد أن رمقته نظرةَ حنق مولِّيةً ظهرَها له... قاصدة منبع رزقها.

وتاركة خلفها و اقعًا مريرًا حيث انتشلها قطار الزواج من حافة العنوسة... ليلقي بها في أرض بور لا حياة فيها ولا جدوى من إعادة إحيائها.

****

*٢٠ نوفمبر ٢٠٠٩

كافيتريا كلية صيدلة – جامعة عين شمس

على أحد المقاعد تجلس أميرة مع صديقاتها.. في حين يأتي أحدٌ منادياً:

- (أميرة).. يا ميرو... يا واد يا كميل إنت.

- أيوه يا (حسني)، نعم... قولت لك مليون مرة بطّل تناديني كدة قدام صحابي...

ضحكت الفتيات ثم تركنها، وجلسا على مقعد آخر...

تنحنح حسنى خجلاً... إحم إحم.

- حاضر ويا ريت يا ست هانم بلاش (حسني) ده، هو اسمى مش عاجبك ولا إيه؟

- لا، عاجبني طبعا بس نص مصر اسمهم (أحمد)، إنما حسنى مميز وبحبه كده.

- وهو كمان بيحبك ثم غمز بعينه.

ضحكت بخجل حين أردف متابعاً:

- وبعدين تعالي هنا.. مبترديش على الموبايل لي؟ ها؟!

- مسمعتوش..

- ممم ماشي... براحتك.

- براحتي! انت عارف إني مبحبش الكلمة دي.

- طب خلاص، (غصب عنك) يا أم دماغ، كده حلو؟!

- أيون ^_^

- والله هبلة...

- طب يلا يا عم العاقل عندنا محاضرة...

- يلا ^_^

(حسني) أو (أحمد) طالب بكلية الصيدلة في عامه الأخير..

شاب وسيم ملتزم دينيًا وعلى قدر كبير من الرز انة، تلك الأخيرة لا تسري على (أميرة) طبعاً.

له من الغمازات ما يكفي ليأسر (أميرة) في قلبه... تطلق عليه لقب (حسني) وتشبهه بليوناردو ديكابريو...

تناقض مذهل فلا بأس، ما دام ذلك يسعدها أما عنها فهي فتاة خمرية البَشَرَة... بُنيّة الشعر لها عينان خضراء اللون وصاحبة لقب (أم خدود)!

في عامها الثاني بنفس الكلية وحصلت علي الترتيب الأول للعام الماضي، وتجبر (حسني) علي حضور محاضراتها معها في أوقات فراغه حتي لا تنشغل عيناه بأخرى.

"تفكير البنات بقى" كان عليه أن يتحمل برضا دلع الست (أميرة) "بعد مرور نصف زمن المحاضرة".

- (حسني).

- ياعيون (حسني).. نعم؟!

- أنا عايزه أخرج.. حاسة إني عندي صداع شديد.

- أنا معايا بنادول..

- لا مش عايزة.. أنا محتاجه أروح بس..

- اتصل بماما تيجي تاخدني.

- حاضر.. حاضر.. طب إيه رأيك تديني العنوان و...

لم يكمل كلامه حتي قاطعته.

- لا، اتصل بمامتي بس.

أسرع بالاتصال بوالدتها وأخبرها أن تأتي، وشرح لها الموقف فهي ستدرك كيف تتصرف على عكس والدها.. سيترك كل ما حدث ويسأل عن علاقته بابنته.

بعد وصول مدام إيمان.. حمل (أحمد) (أميرة) بين ذراعيه لأنها لم تستطيع تمالك أعصابها والخروج على قدميها.. أوصلها لسيارة والدتها..

شكرا يا (أحمد) تعبناك معانا..

لا يا طنط متقوليش كده.. تحت أمرك.

أومأت برأسها ثم رحلت بسيارتها للمنزل..

(أميرة) انتي كويسة؟! حاسة بإيه يا حبيبتي؟

عندي صداع جامد أووي يا ماما ورجلي مبقتش حاسة بيها خالص..
حقك عليا.. متقلقيش هتكوني كويسة..

بعد وصولهما للمنزل.. صعدا معًا ثم حملها أبوها ليضعها في فراشها.. وأغلق عليها الباب وجرى حوار بينه وزوجته.. التقطت أذنا (أميرة) منه بعض الكلمات..

محدش أهم من بنتي الوحيدة.. اللي بدأناه مع بعض لازم ننهيه مع بعض.. كان ذالك صوت والدتها.

****

* ٥ سبتمبر ٢٠١٥

بدأت قطرات المطر تتسابق في اتخاذ أماكنها على زجاج النوافذ.. ولا سيما كان الزجاج من ذالك النوع ذي اللون البني الفاتح "العسلي" الذي كان يضفي على مكتب أستاذ أسامة رونقًا جذابا يليق بديكوره الكلاسيكي.. ذلك المكتب الخشبي الذي يجلس خلفه الأستاذ أسامة إبراهيم رئيس تحرير الجرنال الذي تعمل به (مريم) مدحت.. كان لأحد رجال الدولة المهمين خلال القرن التاسع عشر.. على يمينه مكتبه بعرض الحائط تشتمل على كنوز الأدب والتاريخ والعلوم وغيرها من الكتب النادرة.. تلك الأريكة الجلدية كانت مميّزة وطغى عليها اللون البني القاتم فيما كانت هناك بعض الخيوط التي تتخللها ذات لون فاتح.. عندما تراها للمرة الأولى تدرك أنها قطعة فنية وتلك السجادة التي تتوسطها طاولة زجاجية بيضاوية جلبها من سيناء.. حيث حاكتها امرأة من البدو خصيصا لأجله.. كان يحب التفاخر كذكر طاووس فيذكر المغامرات التي قام بها في كل مرة يجلس مع شخص مختلف.

طرق الباب عدة طرقات منتظمة.

- ادخل.

- صباح الخير، حضرتك كنت عايزني؟!

- اتفضلي يا (مريم).

تجلس (مريم) في مواجهتة على أحد الكرسيين الموازيين لمكتبه.. فيما خلع نظارته ووضعها أمامه على مكتبه.

- عجبني المقال الأخير اللي كتبتيه.. عمل ضجة على السوشيال ميديا.

- مواضيع المجتمع ومشاكل الناس النفسية والاجتماعية بتجذب القراء جدًا وانا حبيت أجرب نفسي فيها وخصوصاً مواضيع السحر والشعوذة والحاجات المبهمة.

- تمام.. أرجو انّها متقصرش على التجربة.

- أكيد طبعا يا فندم.

يلتقط النظارة ويقلبها بين أصابعه قائلاً:

- (مريم) إنتي كويسة؟!

- الحمد للة كويسة.. دقّ جرس هاتفة مقاطعا لها.

- طب اتفضلي انتي على مكتبك دلوقتي.

أومأت برأسها وخرجت قاصدة مكتبها.

أخذت تتفقد بريدها الإلكتروني.. رسائل القراء التي تعبر عن إعجابهم.. والبعض منها يطلب مساعدات.. لكن كانت هناك رسالة مختلفة، قليلا قد لفتت انتباهها تكررت عدة مرات على أيام متفاوتة كان مضمونها قصيرًا مبهما "عايزة أقابلك.. موضوع يخصك وخدمة صغيرة ليا".

على الأرجح ستكون دعابة من إحدى صديقاتها.

صديقاتي! هبه ولكن أين هم صديقاتي.. تفرّق كل منهم في دربة الخاص.. لقد أنستهم الحياة تلك السعادة التي كانت تغمرنا حين نجتمع سويًّا.. جلسات الغيبة والنميمة والضحكات والهمسات.. العتاب. أحضان الفراق ولهفة اللقاء.. مر شبح ابتسامة على شفتيها كما مرتْ ذكرياتها مع أحبائها ترى ماذا فعلت بكم الدنيا اللعينة حتي تبعدنا بهذا الشكل.. تنهدت ومسحت دمعة فرت هاربة من سجن الذكريات.. حملت حقيبتها وأور اقها وآلامها معلنة غروب شمس يومها.. رحلت وهي تحن للماضي البعيد الذي لن يقترب!

****

- تسللت خيوط الشمس لغرفة (أميرة) ليمتد البعض منها على فراشها... يداعب بشرتها لتستيقظ وتجد والدَها بجانبها..

- صباح الفل يا ميرو عاملة إيه يا حبيبتي؟

- كويسة الحمد لله نظرت حولها ثم أردفت متسائلة.. ماما فين؟

- عند طنط ميريت اللي في الخامس بتطمن عليها.

- نظرت بجوارها لتدرك أنها ما زالت الساعة التاسعة صباحا.

قالت بتعجب:

- بدري كده؟!

- مكنش ينفع تتأخر أكتر من كده.

- تتأخر على إيه؟!

- أقصد انها كانت تعبانة من فترة و...

قطع حديثهما صوت إغلاق "باب الشقة".

خرج والدها مسرعًا مغلقا خلفه باب غرفة (أميرة).

- ها عملتي إيه؟

- خلاص... قالتها وزفرت هواء كاد يخنق رئتيها كمن يتخلص من هموم مطبقة على القلب.

- (أميرة) صحيت وسألت عليكي.. قولت لها انك كنتي بتزوري ميريت اللي ف الخامس.

- كويس..هدخل اتطمن عليها..هي بقت كويسة دلوقتي؟

شق حديثهما صوت (أميرة)..

- أنا كويسة يا ماما!

ركضت نحو ابنتها لتحضنها.

- الحمد لله على سلامتك يا حبيبتي.. خمس دقايق والفطار يكون جاهز..

- لا هفطر مع صحابي في الكلية.

- مينفعش تنزلي و انتي لسه تعبانة.

- يا ماما يا حبيبتي انا بقيت كويسة.. قبلت يدها ثم انصرفت لغرفتها تبدل ملابسها..

فيما نظرا والداها لبعضهما البعض وأردفت والدتها:

علشان تتأكد بس انّهم السبب.. مش قولتلك!

***

- أمام مدرج (ا) الذي تؤدي به (أميرة) اختباراتها وقفت مع صديقاتها.. عندما خرج اسمها من بين شفتي د. شريف المعيد الجديد أو كما يسمية البنات "توم كروز".

كان أنيقاً.. يمتلك عضلات.. ثم عضلات.. ثم ذقنا خفيفة.

- (أميرة).

- أيوه يا دكتور.

- ازيك.. سمعت انك تعبتي في محاضرة د. مصطفى.

- أنا كويسة الحمد لله.. شوية هبوط بس.

- خدي بالك من نفسك أكتر من كدة يا ميرو.

- أكيد يا دكتور.. نظرت خلفة لتجد (أحمد) بمواجهتها..

- أسيبك بقى.. وحمد لله على السلامة.

- الله يسلمك يا دكتور.. اتفضل.

اقترب (أحمد) حتي وقف أمامها..

- دة شريف مش كده.. كان عاوز ايه؟!

- أبدا.. كان بيقولي ألف سلامه..
- والله! ومن إمتى وهو بيتواضع للطلبة؟!
- معرفش بقى.. أنا عمري ما حسيت إنه متكبر..
بالعكس بحس إنه طيب وعسول كدة وجدع..
- وحيات امّك!
- (أحمد) ! في إيه..
- مفيش.. امشي.. روحي خلصي محاضراتك..
- لا..
- خلاص براحتك.. أنا مش فاضي أصلا.
تركها وذهب مبتعدًا عن حريق نشب بداخلها أشعله بكلمة "براحتك".
- ماشي يا (أحمد).
قالتها (أميرة) متجهة لمحاضرتها.

*****

الواحدة بعد منتصف الليل.

يجلس (أحمد) على مكتبه في غرفتة محاولاً استيعاب أي شيءٍ يستطيع أن ينقذة من اختبار الغد.

(أميرة) بغرفتها تغدو ذهابًا وإيابا ممسكة بهاتفها تريد أن تضغط زر الاتصال لكنها تتردد مراراً..

يقطع ترددها صوت طرقات على الباب.

- اتفضل.

إنتي لسه صاحية يا ميرو؟

- أيوه يا ماما.. شوية وهنام.. نظرت للهاتف بيدها والتوتر الذي يرقص على وجهها وأردفت:

- (أحمد) صح؟

أومأت برأسها إيجابا.

جلست على الأريكة بالغرفة.

- بصي يا (أميرة).. الحب حاجة جميلة لو كانت في مكانها.. للشخص المناسب.. والوقت المناسب.

ده الحاجة الوحيدة اللي بتصبرنا على الزعل والضيق من الطرف التاني.

أنا معرفش انتي مدّايقة من (أحمد) ليه بس؟ كل علاقة بيكون فيها مشاكل كتير.. أنا وباباكي كنا كده واكتر كمان.. بس كنا بنستحمل ونعدي علشان بنحب بعض، لازم نتنازل عن حاجات صغيرة علشان حاجات أهم وبعدين هو مش ناوي ييجي يشرفنا هو وأهله ولا إيه؟

- هانت كلها السنادي يا ماما.. غمزت بعينيها.

- يا مسهل.. تصبحي على خير يا حبيبتي.

قبلت جبينها و انصرفت.

- و انتي من أهل الجنة.

تتأمل (أميرة) الهاتف الذي يربض فوق أناملها ثم تضغط أحد أزراره.

- ألو...

- نعم.

- بص انا مكنش قصدي اتكلم عن شريف كده.

- إنت اللي استفزتني بأسلوبك.

- أنا اللي استفزيتك برضو صح؟!

- أيوه..

- أستغفر الله العظيم.

- ماشي عايزة إيه دلوقتي؟!

- اعتذر لي عن أسلوبك النهار ده.

- آسف.. خلاص كده.

- لا.

- انجزي.

- مش عارفة انام وعوزاك تحكيلي حدوتة.

- لا والنبي؟! إنتي فاضية مش كده!

- علشان خاطري يا (حسني) بليز.

- (حسني)؟! آه.. وما له.

- إية رأيك تستني شوية كلها ربع ساعة ويونس هيقول قصة رعب جديدة، نسمعها مع بعض وتسيبيني اذاكر شوية.

- لا انا عايزة انام دلوقتي ما ليش دعوة.

- ممم طب قوليلي كلمة حلوة الأول.

- بسبوسة ها ها ها.

- بت اتظبطي.

- حاضر.. بحبك.

- و انا مبحبكيش ها ها ها.

- إيه؟!

- يا هبلة أنا بحبك وبحب حياتي علشانك.

- احم.. احم.

- قال يعني بتتكثفي وكده هههههه.

- بس بقى يلا قول الحدوتة.

- حاضر يا رخمة.

- كان يا مكان في قديم الزمان وما يحلاش الكلام إلا بالصلاة على سيد الأنام.

- عليه الصلاة والسلام.. قالتها (أميرة) بمرح طفلة في الرابعة من عمرها.. تنتظر أباها ليقدم لها حلوى.

كان في بنوتة جميلة اسمها إيه؟!

- (أميرة) صاحت بها في مرح.

- صح.. (أميرة) دي كانت أوقات رخمة وبتزعل الناس منها.. واخدة بالك أنتي؟!

- ممم كمل.. قالتها بنفاذ صبر.

- كانت هبلة وبتقول كلام ترجع تندم عليه بعدين.

بس كان قلبها أبيض وطيبة والناس كلها بتحبها.

وفي يوم من الأيام قابلت فارس شجاع.. معايا؟!

(أميرة)! بت.. إنتي لحقتي نمتي؟!

يخربيت جنانك.. بحبك يا رخمة.

ومقدرش ازعلك.. أو حتى ازعل منك.

وبعدين انا بغيرعليكي يا هبلة يا ام دماغ.

أحلى دماغ الصراحة.. تصبحي على خيريا حبيبتي،

امووووواه.

- عيب.. قالتها بصوت ممتلئ بالنعاس.

- إنتي صاحية يا قردة؟

- اممم.

- طب روحي نامي يلا.. باي يا حبيبتي.

- باي يا حبيبي.. امووه.

أغلق الهاتف مردداً: هبلة هبلة يعني مفيهاش هزار.

ابتسامة.. ترسم تلقائيا على شفتيك عندما تتحدث مع حبيب.. شخص تربع على عرش قلبك

أصبح المتحكم بطقسك ومناخك المزاجي.

تتمتم ببعض الكلمات التي حفظها لسانك:

"اللهم أدمه نعمة في حياتي". تغمض عينيك.. وتذهب في سبات عميق وتترك مذاكرتك والأهم.. قصة الرعب.

****

١٠ سبتمبر ٢٠١٥

- كل سنة و انتي طيبة.. مينفعش أفوت أي عيد ميلاد ليكي.. إنتي عارفة طبعاً.

- ميرسي يا عمر.. قالتها (مريم) ثم نظرت بتشتت حولها.

- إنتي متضايقة انك جيتي النهار ده؟!

- وحشتيني يا (مريم).. ومتأكد أني كمان وحشتك.

عمر محامي مشهور ازداد نجاحة بعد تخرجة وعملة في مكتب محاماة كبير.. تميز بلباقتة في حديثة وذكائه وعلى الأغلب دهاؤه الذي ساعده في اجتياز العديد من القضايا الصعبة.. وكان زميلا لـ(مريم) وحبها الأول وعلى ما يبدو الأخير.. فرّقهما القدر.. لكنهما ما زالا على اتصال.. تحت مسمى "الصداقة"!

من قال: إن "الصداقة بعد الحب نكتة تثير البكاء"؟!

كان حاد العينين تراه لأول مرة وتعتقد أنك تعرفة منذ زمن.. هادئ الملامح على عكس صفاته العصبية نقطة ضعفه.. (مريم) والحشيش.

- وحشتني يا عمر.. بس بحس ان دي خيانة لـ(مروان).. حتى لو كنا مش طايقين بعض بس أنا بخونه بمشاعري.

- خلاص اتطلقي منه.. و أنا هتجوزك.

هو أنا اتجوزته علشان اتطلق منه.. أي نعم أنا مبقتش طايقة حياتي معاه بس حاسة بذنب ناحيته.

متطلقيش.. ذنبي إيه أني مستنيكي لحد دلوقتي!

ذنبي إيه كل يوم بموت و انا بتخيل انك في حضن حد غيري.. عارفة يعني إيه حد غيري يكون ليه حق فيكي! أنا مش قادر احضن واحدة تانية غيرك.. هو انتي موحشكيش حضني ولا هو عاجبك؟!

- مبسوطة معاه!

- عمر كفايا بقى.

- كفايا صح.. بتحبيني يا (مريم)؟!

- بلاش دي.. جيتي ليه النهار ده؟

- تحبي أجاوب أنا بدالك.. علشان أنا الوحيد اللي بفرحك.. أنا اللي بفكرك بعيد ميلادك

أنا الوحيد اللي مهما تلفي الدنيا محدش هيحبك قدي.

- أنا همشي..

دمعت عيناها.

- علشان خاطري متعيطيش أنا آسف..

أمسك يديها وقربها من وجهه.. واستنشق عبيرها.

قبلها.. عاتبها على فراق غير مقصود في صمت.

- متزعليش.. حقك عليا.. أنا بحبك والله!

- أنا هروّح علشان متأخرش.

- استني هوصلك.

- لا خليك.. أنا معايا عربيتي.

صعدت لسيارتها.. قاصدة اللا مكان.. فقط تريد أن تبتعد قدر الإمكان عن الماضي وأوجاعه.

لم تنتبه لذلك الصندوق على المقعد الخلفي إلا بعد مرور وقت لا بأس به.. توقفت عند إحدى الحدائق العامة.. وجلست على أحد المقاعد وبين يديها ذالك الصندوق.. صندوق من الورق المقوي باللون الأبيض يزينة شريط من الستان الأحمر القاني.. يتقاطع ليصنعَ على أحد أطرافه فيونكة صغيرة.. فتحته لتجد بداخله قطعة مستطيلة من الخزف الأزرق الفاتح

نحت عليها وردة بيضاء بارزة.. ليست مجرد قطعة خزفية بل هي دفتر مذكرات أو يوميات.. كتب بالصفحة الأولى:

"إهداء إلى التي من المفترض أن تكون زوجتي ولم تكن.. لكنني لا أكلّ من الدعاء بأن تكون يوما ما أما لابنتي".

سرت قشعريرة بجسدها و ابتسامة تدرك ما ترمي له هذه الكلمات لكن سرعان ما اختفت عندما تذكرت الحاضر الذي لا مفر منه.

حاضر ميت لا حياة فيه.

"إننا نتملك الخيال خشية أن نهلك من رؤية الحقيقة"!

"نيتشه"

****

جدران مهترئة وحوائط سقط طلاؤها، لا تدرك ما كان لونه لتراه مجردَ رسوم... ورموز... ربما هي طلاسم.. تضفي على المكان رهبةً تجعله مقبضاً... بداخل المكان غرفة لا يختلف وصفها عن خارجها غير أنها مكتظة بعض الشيء... بعض الوسائد وطاولة بيضاوية في منتصفها... مقعدين خشبيين كبيرين يستندان إلى الحائط.. كما أنه من الجلي أن تنتبهوا لذلك الكهل العجوز... الذي يرتدي قلائد لا حصر لها ويضع وشاحاً على رأسه ليغطي كتفيه.. عيناه بيضاء تماماً... جلده مترهلٌ.. تخط يداه شيئاً ليس مفهوماً.

بدأ وكأنه جزء من ديكور الغرفة.

ينظر للفراغ فتلمع عيناة البيضاء، وتنقشع ليظهر تحتها عينان بنيتان حادتان... تعرف ما تريده تماماً.

ما زلت هنا... لعلك تدرك ذلك.

لكن لماذا أتيت حقاً؟! لماذا؟!

تغوص عينيك في كل شيء... فراغ يحيط بك يعزلك عن ذاتك.. ترى أحلامك تتلاشى أمام ناظرك... تقف مكتوف اليدين.. تشاهد.. تقاوم.. تستسلم.. تستمتع.. تجاري الأمور كما تريد هي أن تكون... تصبح منوماً مغناطيسياً تفعل أشياء... كأنك لست أنت.. تجهل من أنت وما جعلك غير شخصك.. تنفر من نفسك.. تبحث عنك بداخلك.. ضجيج يهزُّ أعماق كيانك.. تفقد وعيك بعد صراع دامٍ مع نفسك.. ثم يعم الهدوء.

****

أقبل مارس ٢٠١٠ بيوم ربيعي... نسيم يلفح الوجوة كان وجة (أميرة) قد اكتفى من ذلك الهواء... فقد مرت نصف الساعة وهي بانتظار رفيقتها.. حتى لاحت لها من بعيد.

- إيه يا بنتي كل ده؟

- انتي عارفي د. مصطفى عنده ذمة، لازم يخلص وقت المحاضرة كله.

- طب يلا علشان أوصلك في طريقي بسرعة.

- هو احنا متفقناش نشتري شوية حاجات؟!

- خليها يوم تاني... بابا اتصل وعايزني دلوقتي.

- خلاص أوك مفيش مشكلة.

وصلت (أميرة) عند بناية في المعادي تضم سبعة عشر طابقا تستقر شقتها في الطابق الثالث... تصعد ٥٣ درجة حتى تصل لباب الشقة... تخرج مفاتيحها لتنتقي منها واحداً معيناً تولجه في الباب. ومن الخارج تسمع شجارًا قد نشب بين والديها... فتسرع في الدخول... لتجد كلاهما في مواجتها... يبدو على وجهيهما أقصى علامات الغضب... فأغلقت الباب خلفها..

نظرت لهما في انتظار أن يخبرها أحدهما أي شيء.. ساد الصمت لدقائق حتى قطعه صوت والدتها...

- آآآ ادخلي غيري هدومك لحد ما أجهز الغدا.

أومأت برأسها...

عندما نظرت لوالدها أشاح بنظرة عنها... فاتجهت لغرفتها... حين تذكرت شيئاً فالتفت..

- هو انتو كنتوا بتتخانقوا ليه؟!

- أسرعت أمها لتبادلها الرد.

- أبداً يا حبيبتي مفيش...

لم تكد تنهي جملتها حتى قاطعها والدها...

- أظن من الأفضل تدخلي أوضتك دلوقتي...

في كلام كتيير عاوزين نقوله... لثوان أحست أن ذلك الو اقف أمامها ليس والدها.. نظراته القاسية المشتتة... صوته الذي تغير فجأة أيضاً أثار الفزع والرهبة بداخلها.

تستقر (أميرة) على فراشها... تهز قدمها... تضغط على شفتيها... تضم يدها بالأخرى... تترقرق عيناها.. إحساس مُقبض... يخبرها أن أمراً سيئاً سيحدث تنظر لمكتبها... تتأمل غرفتها.. إنها السابعة على التوالي.. تذكر ذاك اليوم الذي عاد فيه والدها للبيت.. تصرخ ملامح الفزع من وجهه... وجذب والدتها من يدها لغرفتهما.. تشاجرا... بدل ملابسهما.. تذهب لها والدتها باكية.. مشتتة.. تخبرها أن تبدل ثيابها.. تجلب أغراضها المهمة.. لأننا وبكل بساطة سنرحل.. ولن نعود هنا للأبد.

لم تكن لتفهم ماذا يعني للأبد.. لكنها أدركت أنه بعد مرور عامين لا بد أن ينتقلا من بيت لآخر وفي كل مرة يتركان كل شيء عدا صندوق خشبي قديم وبعض الأوراق والأشياء اللازمة.. وبالطبع لم تتخلَ (أميرة) عن دميتها المفضلة.. فكانت الصديق الوحيد الدائم في حياتها حتى الآن.. دب صغير بني اللون له عينان سوداوان.

كانت تدرك أن شيئاً ما خاطئ يحدث.. لكنها لا تجرؤ على السؤال... فقط استسلمت لما يفعله والداها..

لم تعد تبالي... لم تعد تفتقدهما إذا سافرا كالعادة لم يهتما لأمري يوماً.. فلماذا أهتم أنا؟

قطع تفكيرها صوت والدتها..

- الغدا جاهز يا (أميرة) يلا تعالي.

- حاضر.. جايه.

جلسا الأبوان و ابنتهما حول لمائدة طعام، مربعة بيضاء طعمت بلون البنفسج وزينها نحوتات مفرغة بأطر افها.

أثناء تناولهم للطعام ساد صمت تكاد تسمع فيه صوت حركات النمل بجوار الحائط... تلاشى ذلك الصمت عقب خروج صوت والد (أميرة) من حلقه...

- (أميرة).. إنتي عارفة قد إيه أنا وماما بنحبك.

وكل حاجة بنعملها اعرفي انها لمصلحتك.

- تركت (أميرة) الشوكة من يدها.. ونظرت لوالدها وأردفت:

- مصلحتي؟! هه فعلا؟!

هي مصلحتي انكو تقسوا عليه كده ودايماً بحس اني لوحدي و انكو بعيد عني؟!

مصلحتي انكو تغيروا بيتنا كل شوية..؟! جيران جديدة وصحاب جديدة... وكل حاجة بتتغير ومبعترضش وفي الآخر انتو تسيبوني وتسافروا.. فين وليه؟ معرفش.. مش من حقي حتى أسألكوا بتعملوا كده ليه.. مفكرتوش تاخدوني معاكو مرة؟!

مصلحتي اني أفضل قلقانة؟! يا ترى هتفضلي جمبي يا ماما ويا تري هتبقي دايماً في ضهري يا بابا ولا هيجي يوم وملقاكوش... زي ما حاجات كتير حلوة ضاعت وملقتهاش.. لو هي دي مصلحتي صدقني يا بابا مبقتش محتاجاها بجد.. شكراً.

- (أميرة)! احتد صوت والدها بينما انهمرت والدتها في البكاء وذهبت لغرفتها..

أردف والدها قائلا:

- هتفهمي كل حاجة بس في وقتها المناسب...

- الوقت المناسب كلمة احنا اللي اخترعناها علشان نأجل بيها كلام مقدرناش نخرجه على لساننا..

- هنسافر فلسطين.

- نظرت له باستغراب... فيما تابع كلامه.

- عندي دين قديم ولازم أسدده.

- دين... وفلسطين؟! إزاي يعني مفهمتش.

- بعدين هتفهمي.

- هي دي بلدك صح؟

- نظر لها بدون أن يعقب على كلامها.

- طب أكيد لينا قرايب هناك... ليه معرفتناش من زمان... ليه حسستني أننا مقطوعين من شجرة؟!

ترقرقت عيناه.. فلا يعرف كيف يخبرها.

كيف يكفر عن ذنبه.. كيف يجيب عن تساؤلات عينيها؟

- أنا عرفتك المكان اللي هنروحه علشان لو مرجعتش لازم تروحي هناك ومتسأليش عن حاجة تاني... كل حاجة هتعرفيها في وقتها.

فلتت الدموع من بين الجفون التي حاولت جاهدة أن تمنعها.. بكى كأنه لم يبكِ من قبل...

اعتذر منها... قبّل جبينها... عانقها.

لعله العناق الأخير.. لا تدري لما أحست بقلب أبيها كاد يحترق ألماً.. لم تكن تريد كل هذا العناء والألم، فقط أرادت أن يبقيا معها حتى الموت.

احتضنته بدورها... ذاك الأمن والطمأنينة الذي قد ينتابك عندما تستقر في صدر أحدهم... وبالأخص صدر والدك لطالما كانت تعتبره بمثابةِ وزارة الداخلية... حيث فيه يقف كل شيء على قدم واحد من أجل عيون "الست (أميرة)".

- بابا... هو مينفعش تلغي السفرده؟!

- يا ريت لو ينفع.. قالها وشرد ذهنه في ماضٍ أليم.

ماضٍ وقح... لا يضع لمشاعرة حسباناً... لا يتهاون في شروطة الجزائية... فقط يحقق مبتغاه ويرحل ملعوناً...

وضع كفيه على وجهها... وأردف:

- اوعديني... انك تسامحينا أنا وماما.

- أسامحكوا على إيه؟! قالتها ونظرت في عينه علها تجد المذنب وتعاقبه على فعلته الدنيئة.. كيف يجرؤ على أخذ والديها منها بهذة الطريقة؟

- على أي حاجة ضايقتك مننا.

- قبل جبينها ثم حملها لغرفتها.

- هو انتي كبيرتي وتقلتي.. ولا أنا اللي عجزت وراحت عليا؟!

- لا يا حج ما تقولش كده.. دا انت لسه في عز شبابك.

- يا بكّاشة.

ضحكا... حتى يتجاهلا المصير الحتمي الذي لا بد وأن يحدث.

****

مرآة مستطيلة تزينها لمبات نيون بيضاء، تعكس أنثى انحنى القمر إجلالاً لها وتنحى عن كرسي العرش إرضاء لكبريائها.. ترفع خصلات شعرها الكستنائي لتضع قرطاً دائرياً مرصَّعًا بالألماس في أذنها اليسرى.. وتضع لمسة أحمر شفاه داكن اللون ليضفي عليها جاذبية... توج عينيها البنيتين رموشٌ كثيفة تزيد جمالها.. وسحراً... ذلك الفستان الأسود القصير الذي ارتدته انشق ظهره ليبرز جمالا ووشمًا اتخذ من أسفل عنقها موطناً له..

التفت ذراعا (مروان) حول خصرها ثم أردف:

- إيه الحلاوة دي؟

ثم غمز بعينه.

- أدارت ذاك الخصر المنحوت وطوقت عنقه بيديها اللؤلؤتين.. و اقتربت منه حتى لامست شفتاها أذنه وهمست:

- طول عمري حلوة.. تقدر تنكر؟!

ضحكت..

- رنت ضحكتها في قلبه.

- طبعاً مقدرش... تحبي نخرج فين النهار ده؟!

- ضغطت على شفتها السفلى بأسنانها.. وداعبت شعرة بيديها.

- ممم بص بقى... مستنية (مرو اني) حبيبي يفاجئني ثم طبعت قبلة على خده... لتتلاعب بأعصابه ماركة أحمر الشفاة اللعينة.. وسحبت ممتلكاتها من حضنه ورشت عطرها المميز ثم جذبته من بذلته ليرحلا..

كانت امرأة كما وصفها (مروان) بأنها "تحل من على حبل المشنقة " لكن هذه المرأة سال لعابه لها... راودته حتى تمكنت منه.. جعلته كخاتم وضع خنصرها.. تلاعبت به كجمرة.. كان راضياً.. حتى لو كانت هي طريقة للهلاك.. يكفيه لمسة يديها... أو قبلة لتنسيه من يكون... يكفيه أن يكون بجوارها

كقطة شيرازي.. تداعبها وقتما تشاء.. لم يدرك أن لحياته تلك عواقب وخيمة.. ستظهر عما قريب جداً.

****

على أريكة قطنية كانت تتسع لشخصين ولم تعد تتسع، جلست (مريم).. أمامها لاب توب وفي يدها فنجان من القهوة.. تنهي عملاً.. وتبعث رداً على بعض الرسائل حين لاحت بعينيها تلك التي لا تكاد تختفي، حتى تظهر مرة أخرى "عايزة اقابلك.. موضع يخصك وخدمة صغيرة ليا".

- ومالو نتقابل.. ميضرش.

لو حد من صحابي.. هتبقى فرصة جميلة لأننا اتقابلنا ولو حد تاني.. نشوف عايز إيه وشكراً.

كادت تبدأ في كتابة رد على الرسالة.. حتى ظهرت لها أخرى.. جحظت لها عيناها..

- وافقتي مش كده؟ هنتقابل بكرة في العنوان ده بعد ١٢ بالليل.. بتفكري هتقولي إيه لجوزك... متقلقيش هيرجع متأخر واحتمال ميباتش بكرة في البيت زي النهار ده كده.. متتأخريش.

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. قالتها مبتعدة عن جهازها.. عندما وقع فنجان القهوة من على الطاولة جاءت رسالة أخرى... "دلق القهوة خير".

أغلقت الجهاز وذهبت لغرفتها..

-بسم الله الرحمن الرحيم!

أمسكت هاتفها واتصلت برقم حفظتة جيداً.. حتى أتاها الصوت:

- إنت فين؟!

- عندي شغل.. هبات بره.

أغلقت الهاتف دون سلام.

صعقها الرد.. رغم معرفتها به.. لم تهتم بـ(مروان) من قبل، فقط أرادت أن تتأكد مما قالته تلك المرأة صاحبة الرسالة.. ارتدت سدالاً وشرعت في الصلاة.. هرباً من و اقع مخيف.. و اقع مُقبِض.

*****

عادت (أميرة) من كليتها.. توقف سيارتها بالقرب من العمارة التي تقطن بها.. سيارة إسعاف والعديد من سيارات الشرطة ورجالها الذين يملئون المكان عند دخولها البناية.. أوقفها ضابط ذو رتبة عسكرية كبيرة.. استنتجتها من النجوم المتراصة على كتفيه.

- حضرتك ساكنة هنا؟!

- أيوه.. الدور الثالث.

- بطاقتك لو سمحت.

- اتفضل.. تبادل النظرات بين البطاقة وصاحبتها.

- هو في حاجة حصلت؟!

- إنتي آخر مرة شوفتي مدام ميريت جارتك اللي في الخامس امتى؟

- من كام يوم قابلتها في الأسانسير.

ملاحظتيش حاجة غريبة عليها؟

- حاجة غريبة زي ايه؟!

- أنا اللي بسأل؟!

- لا ملاحظتش.. هي عملت حاجة؟!

- توفت وشاكين انها اتسممت.. بفعل فاعل طبعاً..

- لا إله إلا الله... ربنا يرحمها معنديش فكرة عن الموضوع ده!

أعطاها البطاقة وأردف:

- لو افتكرتي حاجة يا آنسة (أميرة) يا ريت تبلغينا.

- أكيد.. أومأت برأسها وصعدت لمنزلها.

- دخلت شقتها لتجد والدتها في مواجهتها.

- إنتي كويسة؟.. شوفتك و اقفة مع الظابط تحت.

- كان بيسألني عن طنط ميريت.

- قولت له اني شوفتها من كام يوم في الأسانسير..

- ليه بس كنت قولتي مشوفتهاش وخلاص..

- عادي يا ماما.. هو انتي صحيح مش كنت عندها من يومين؟! ملاحظتيش انها تعبانة؟!

- إيه! لا لا كانت كويسة.. اوعي تكوني قولتي كده للظابط هيدخلنا في سين وجيم واحنا مش ناقصين.

- لا مقولتش حاجة.. بس مش غريبة حكاية التسمم دي.. يعني عادي ناس كتير اتسممت وماتت ومحققوش مع حد.. اشمعنا دي؟

- متشغليش دماغك.. غيري هدومك.

لحد ما أجهز لك الغدا.

ذهبت (أميرة) لغرفتها.. تعاني من ذاك المرض اللعين ذاك الذي يسمي الفضول.. الكثير من الأسئلة لا إجابات لها.. ليس فيما يخص مدام ميريت بتاعة الخامس ولكن حياتها بأكملها لغز لا تفقه تفسيره.

لطالما كانت تبحث عن الجواب وسط العاصفة.. ولكن سريعاً ما تتلاشى تاركة لها حيرة.. لا تنتهي.

*****

- لطالما كنت وما زلت أعاني من رهاب المجهول.. المجهول بكل ما للكلمة من معنى.. من الأشياء التي أجهلها.. من الأشخاص الذين لا أستطيع رسمَ شخصياتهم بوضوح أو التنبؤ بأفعالهم.

من المستقبل الذي يفاجئني كل يوم.. لذلك كنت كثيراً ما أتوقع الأسوأ.. بل وأصوره كيقين على شاشة مخيلتي.. كلما أتفاؤل.. لأنني أخشى صفعات المجهول الذي لا محيص عنه ألا يتقبله أو الموت.. لم يحمل المجهول دوماً كل ذلك الكم من الغموض ولماذا يأتينا في تلك الأوقات التي لا نحتاجه فيها على الإطلاق.. كتلك الصدمات التي تظهر فجأة وتطيح بكل شيء وتقلب كل شيء رأسًا على عقب فجأة أيضاً. فوقع الصدمات يبدو مخيفاً كمواء القطط في الأزقة المهجورة.. يجمد الدماء في العروق ويحجر الدمع في العيون.

*****

في مقهي بوسط البلد جلست (مريم) في إنتظار ضيفة مجهولة.. تنظر في ساعتها.. لقد تجاوزت الثانية عشرة بعد منتصف الليل.. كيف ستعلم أنني هنا الأن؟.. يقطع شرودها صوت فتاة تكاد تبدو في الثانية والعشرين من عمرها.. خمرية البشرة لها عينان خضراوان. تحمل الكثير من الحزن والقوة الغريبة...

- شوفتك و انتي داخلة الكافيه ده فأكيد عرفت أنك هنا. أنا مبقراش أفكارك.. بس سهل اتوقعها.. مدت يدها لتصافحها... ترددت (مريم) قليلاً قبل أن تمد يدها.

- أنا (فريدة).. جلست في المقعد الموازي لها.

عندما أردف الجارسون.. تأمري بحاجة يا فندم.

- اثنين قهوة من فضلك واحدة مظبوطة ليا والثانية على الريحة للأستاذة.

رفعت (مريم) حاجبيها في اندهاش عندما أردفت (فريدة) قائلة:

- دي كمان سهل اتوقعها.. و ابتسمت!

- إنتي مين وعايزة ايه؟!

- أولاً أنا كنت عايزة اقابلك ودي الجملة الأولي وحصلت... ثانياً قولت لك موضوع يخصك والحقيقة هما اثنين.. الأول: عن (مروان) والثاني عنك نبدأ بـ(مروان).. عارفة أنك حاسة بالذنب علشان بتخونية مع عمر... بمشاعرك زي ما بتقوليها... قاطعتها (مريم) بعصبية..

- إية الهبل ده؟ لو كنتي جايباني علشان الكلام الفاضي دة فأنا معنديش وقت.. أسفة..

وهمت بالرحيل فيما أكملت (فريدة) كلامها بهدوء:

- متحسيش بالذنب هو بيخونك طول الوقت ومش بس بمشاعره... ولو حابة تتأكدي اتأكدي.

- أنتي عاوزة ايه يعني؟! قالتها (مريم) بنفاذ صبر.

- اقعدي.. عندما جاء الجرسون بالقهوة أخذت ترشف من فنجانها بضع رشفات.

- اشربي قهوتك وهي سخنة. أصلها بتبقي بايخة أووووي لما تبرد.

نظرت لها (مريم) نظرة حنق تلوم نفسها الأمارة بالسوء على مجيئها هنا... لكن لا مفر الآن.

- نفسك تكوني أم مش كده؟!

لم تنتظر إجابتها.. هتبقي أم قريب دا بعد المشيئة طبعاً.. يا دوب ترجعي بيتك بقى قبل ما جوزك يرجع.

- أنتي مقولتيش أنتي مين؟!

- حكايتي طويلة وما ظنش أنك حابة تعرفيها.. و ابتسمت بغموض.

- طب أي الخدمة التي عايزاها.

- لو جت بنت سميها (فريدة).

- دي الخدمة؟!

- أيوه وأخرجت قلادة من حقيبتها وضعتها في كفها.

- دي هديتها.. لازم تلبسيها لحد ما تيجي بالسلامة ثم تركتها و انصرفت.. بعد تجاوزها لباب المقهي التفت لها قائلة: هنتقابل تاني يا أم (فريدة).

عادت (مريم) لمنزلها.. شعور غريب يعتريها ربما هو بسبب معرفتها أن (مروان) خائن ولا يستحق كل ذلك التأنيب الضميري البشع.. وربما لأن هناك فرصةً لتكون أمًا، ذلك الحلم الذي يراود الجميع أن يصبح والداً لطفل ملائكي مثل أطفال الإعلانات.

أسرعت بتبديل ملابسها حتى لا يراها زوجها ويعلم أنها خرجت.

بعد ساعة عاد (مروان) ليجد (مريم) في انتظاره.

- كنت فين لحد دلوقتي يا (مروان)؟!

- في شغل.. إيه اللي مصحيكي لحد دلوقتي؟!

- شغل بردو.. هو انا موحشتكش؟!

- لا و ابعدي إيدك عني.. أنا تعبان وعايز انام.

- كل يوم تعبان وعايز تنام... مفكرتش مرة تيجي بدري تقعد معايا شوية.. دي مبقتش عيشة دي.

- أيوه مبقتش عيشة.. خدي بعضك وعلي بيت أهلك.. مع السلامة..

- بتطردني يا (مروان).

- أيوه.. ويلا امشي دلوقتي حالاً.

تحبي اجهز لك شنطتك يا بيبي؟!

- إنت سكران صح؟

- لا... واطلعي بره.

دفعها لتسقط على الأرض... فبدلت ملابسها وحملت أغرضاها ورحلت.. للا مكان لا تدري أين تذهب في هذا الوقت الحرج.. جال بخاطرها شخص لن يرفض قدومها بأي وقت اتجهت لمنزله باكية... محطمة القلب.

دق جرس الشقة.. حتى جاء صوت صاحبها حاضر جاي.. فتح الباب ليجدها أمامه!

- (مريم)؟!

*****

الإثنين ١٥ مارس ٢٠١٠

اجتمعا صديقين حميمين لا يفترقان أبداً...

في طريقهما لأداء عملهم اليومي.. الذي لا ينتج عنه سوى الآلام... الآلام قد تطيح بحلمك بهدفك.. بكل ما هو جميل بحياتك.. آلام قادرة على أن تمحو ذاتك.. قادرة على أن تنسيك كيف تبتسم.. قد تحيلك لشخص آخر.. تبدل معالمك وملامحك لتصبح أكبر سناً وأكثر هماً.. تصير كما لو كنت عجوزاً هالكاً.. يرسم الزمن على وجهة تجاعيد الألم والقسوة الصدمة والحرمان.. تلك الأخيرة قد يستغرق الزمن وقتاً لا بأس به في نحتها بدقة... لتظهر براعة القدر في عقد العزم على ما ينوي فعله.. ذلك القدر الذي لا يتوانى عن عمله.. يؤديه على أكمل وجهٍ وها هو يسير متباعد الخطة ورفيقه يلاحقه متوجاً بالمصير الحتمي – الموت – المصير الذي لا مفر منه على الإطلاق.

الخامسة فجراً في منزل (أميرة)...

- يلا يا إيمان بسرعة شوية.. قالها (عيسى) والد (أميرة).

- حاضر خلصت وجاية.

- فين الصندوق؟!

- كفاية يا (عيسى).. خلينا نروح ونسدد الدين ونرجع لبنتنا.

نرجع؟! كلمة شبه مستحيلة مع العالم دي.

سيبي الورقة والمفتاح على السفرة... ويا رب (أميرة) تقدرعلي اللي جاي..

دمعت عيناها بحزن... احتضن يدها بيده.

وربّت على قلبها أن اطمئني.

خرجا من منزلهما مع خروج الشمس، التي كانت باسطة ذراعيها بالنور على الكون ذلك النور الذي لن ينعم به الكثير بعد الآن.

*****

في كافيتيريا صيدلة جلسا (أحمد) و(أميرة) يتحاوران حتى ساد الصمت بينهما لدقائق... قطعه صوت (أحمد):

- ما لك يا (أميرة).. سرحانة في إيه؟!

- قلبي مقبوض بطريقة غريبة معرفش ليه...

- بابا وماما كويسين؟!

- معرفش بابا بيخرج بدري للشغل وماما بتصحي متأخر.. كنت مستعجلة وملحقتش أبص عليها.

- إن شاء الله يا حبيبتي هتكون كويسة.

خلاص تعالي نروح نتطمن عليها دلوقتي.. إيه رأيك.. كلميها ونروح نقعد معاها شوية..

- ماشي.. هتصل بيها أعرفها اننا جايين.

- الهاتف المطلوب مغلق أو غير متاح... يمكنك إرسال رسالة صوتية عن طريق إضافة نجمة قبل الرقم وإعادة الإتصال.

- يلا يا (أحمد) خلينا نروح نتطمن عليها.

في الطريق لمنزل (أميرة) جال بخاطر (أحمد) سؤال وتردد في طرحه عدة مرات، لكنه عزم أن يسألة الآن!

- إنتي ليه كل مرة أسألك ساكنة فين متقوليش؟

- عندنا طقوس ف العيلة بنغير بيتنا كل سنتين.

بنروح مكان مختلف فمحبتش أشغلك بالموضوع دة وكل شوية أقولك عنوان مختلف.

- هنزل هنا؟!

- اها وصلنا.. العمارة دي وأشارت تجاهها.

- تعرفي إني ساكن بعدك بكام شارع؟!

- عارفة.

- أنتي غريبة.

- ابتسمت وصعدا معاً درجات السلم علشان "الأسانسير عتلان" هكذا كتبها فتحي البواب!

دي شقتنا بقى.. أولَجتْ مفتاحاً بالباب.

ودلفت..

- حلوة الميدالية دي.

- بابا جابهالي في عيد ميلادي.. ادخل و اقفل الباب وراك.

- بيتك حلو.. زوقه جميل.

- اختياري بقى لازم يبقي جميل.. ثو اني هدخل لماما.

- غريبة هتكون راحت فين يعني.. قالتها (أميرة) عندما أمسكت بهاتفها لتتصل بوالديها لعل أحدهما يجيب.

- كان (أحمد) يتجول في الصالة يتأمل تفاصيلها، حتى لفت انتباهه ورقة على طاولة السفرة.. فتحها ثم قرأ بضع سطور.. وطواها مرة أخرى.

- (أميرة).. في حاجة عايزك تشوفيها.

- أنا بتصل بيهم ومبيردوش.

- مش هيردو.. وناولها الورقة التي بيده.

- نظرت له ثم التقطتها.. إيه دي.. كانت فين؟!

- لقيتها هنا.

- قرأتها.. أفرغت ما بجعبتها.. طوتها.

دمعت لها عيناها.. مسح (أحمد) دموعها بكفه.. احتضنها.. فاستأنست صدره.

قبل جبينها... اشتهى شفتيها.. ذاقهما..فاستلذهما والتهمها... استسلم لشيطانه.. تبع غريزته الحيوانية واستغل ضعفها.. ألمها النفسي.. نهش كبرياءها وجردها من إحساسها.. كاد أن يعتليها حتى نفضته عنها... صرخت به.. انتشلته من نشوته.

- اطلع برة يا حيوان.. ايه اللي بتعملة ده؟

- (أميرة).. أنا آسف.

- بره... قالتها وبكت.. بكت بحرقة... ذلك الألم الذي يسبب وجعاً بقلبك.. تصرخ له حنجرتك

الألم الذي يسبب تصدعاً بذاتك.

تقف أمام مرآتك... تتأمل ذاتك.. من أنت؟

وكيف حدث كل هذا بك؟...

فتحت الورقة من جديد تبدأ بالقراءة بصوت مسموع وتسخر من نفسها.. من سذاجتها... وحماقتها.

"(أميرة)... أنا وبابا سافرنا النهار ده الصبح.. مقدرناش نودعك.. بس قررنا نسيبلك حاجة تفهمك كل اللي كان نفسك تفهمية من زمان... المفتاح اللي جنب الورقة دي... اعتبرية مفتاح حياتك الجاية هو اللي هيجاوب عن أسئلتك... وبعدها... قرري هتعيشي حياتك ازاي.. بابا كان طلب منك تسامحينا.. أنا كمان بطلبها منك... متقلقيش... كلها شهر ومفيش حاجة هتفرقنا... آخر الورقة في العنوان اللي سافرنا له.. لو مرجعناش خلال شهر.. روحي هناك لأننا مش هنرجع تاني.. خدي بالك من نفسك..

بنحبك.. مترترديش في قراراتك أبداً... انتي دايماً صح".

- بابا وماما!

قالتها (أميرة) بسخرية..

طوت الورقة من جديد ثم وضعتها على مكتبها.

ذهبت تبحث عن ذلك المفتاح.. لتجده كما هو على الطاولة.

- مشوفتش مفتاح زي ده قبل كده.. كان نحاسياً به حجر من العقيق الأحمر يزين رأسه.. كانت تعلم أنه لذلك الصندوق الذي لم يفارق والديها أبداً... فذهبت تبحث عنة بغرفة والديها... وجدته في خزانة والدتها كما توقعت.

جلبتة لغرفتها... جلست على فراشها.. أولجت بة المفتاح.. أدارته مرتين حتى جاء صوت تكة صغيرة.. صندوق يشبة الشكمجية غير أنه مرصّعٌ بأحجار العقيق يبطنه قماش من القطيفة السوداء تجد به أور اقًا وصورًا ومذكرات لأبيها.. وقنينة زجاجية بحجم أصبع السبابة به مادة بيضاء تشبه الحليب.. وأخذت تقرأ المذكرات تقلب صفحة بعد صفحة... وتجحظ عيناها

أكثر وتقرأ وتجحظ أكثر... تفزغ وتشتّت أوصالها.. تقرأ أكثر.. حياتك هي مجرد مسرحية.. خدعة!

هه.. من أنت؟.. تقرأ.. تضحك.. تضحك أكثر.

تبكي كثيراً... ثم تهدأ.. تم إزالة الغشاء من على عينك بنجاح سؤال بديهي تسأله لنفسك الآن..

- من أنا؟!

أغلقت مذكرات أبيها ووضعتها جانباً ثم التقطت الصور... تأملتها جيداً... هي تعرف هؤلاء الأشخاص... لقد كانوا جيراناً لهم في تلك المناطق التي سكنوا بها مسبقاً... وهذه أيضاً صورة لجارتها ميريت التي توفيت..

كان الشيء الوحيد المشترك بين هذه الصور هي النجمة الخماسية على طرف كل صورة... لكن لمَ يحتفظ والداها بصور هؤلاء الأشخاص؟!

الغريب حقاً أنهم جميعاً ميتون ولم تكن تربطهم صلة وثيقة بوالديها.

ربما فك هذا الصندوق لغزاً حيرني كثيراً لكنه أضاف ألغازاً لم تكن لتخطر ببالي.

انتشلها من تفكيرها صوتُ طرقات الباب.

- فتحت الباب لتجد ذلك الرائد.

- ازيك يا آنسة (أميرة)... ممكن أتكلم معاكي شوية؟

- أكيد طبعاً.. اتفضل.

جلسا على أريكة ثم أردفت.

- تشرب إيه؟

- قهوة مظبوطة. أومأت برأسها إيجاباً.

- قدمت له فنجان القهوة فيما كان يرشفه حتى وجه لها سؤالاً...

- أومال والدك ووالدتك فين؟

- سافروا النهار ده الصبح..

- فين؟

- فلسطين عند ناس قرايبنا.

- يقربو ليكوا ايه؟!

- أهل بابا..

- مممم.. مش غريبة شوية؟!

- هي إيه دي؟

- إنهم يسافروا بعد وفاة مدام ميريت علطول.

- هما بيسافروا في أوقات غريبة أحياناً.

- بعد ما حد يموت.. مش كده؟

- كان سؤاله ككوب ماء مثلج سكب في وجهها.

كيف لم تلاحظ أنهما بالفعل يسافران بعد موت أي شخص قريب منهما..

- آآآ... لا متوقعش.

- ماشي.. عموماً احنا هنتابع الموضوع ده.. شكراً ع القهوة.

أومأت برأسها ثم أغلقت الباب خلفه.. لغز آخر... قالتها واتجهت لغرفتها.

****

- لو سمحتي يا (مريم) بطلي عياط وفهميني في إيه علشان اقدر اساعدك.

كان ذلك عمر يحاول تهدئة (مريم) التي دقت بابه في مطلع الفجر باكيه.. حاملة معها آلامها.

- (مروان) طردني من البيت.. مش كفاية اني مستحملاه بالعافية.. ومستحملة خيانته ليا.. كمان بيطردني من بيتي وش الفجروبيمد إيده عليا؟

- طب اهدي.. وادخلي نامي في الأوضة دي والصبح يحلها ربنا.. متخافيش أنا جنبك.. قبل يديها وأوصلها للغرفة.

عندما استيقظت وجدته قد اعد لها فطوراً وجلب لها وردة.. وصنع من أجلها فنجان قهوة.

- إيه كل ده؟.. قالتها (مريم) باسمة.

- ده لعيون الجميل.. يلا افطري علشان عندنا شغل.

نظرت له كمن ينتظر قولاً آخر.. حيث أردف قائلاً:

- إنتي عايزة (مروان)؟!

- لا.. هطلب منه الطلاق.. أظن كفاية كده.

- تمام هخلص أنا الموضوع ده.. ولو مرضيش يطلق؟

- هخلع... قالتها وهي تلتقط قطعة من الجبن.

- كويس... وبعدين..

- هدور على واحد يجهز لي فطار حلو زي ده.

- تحت أمر سعادتك يا أستاذة.. ثم غمز بعينه.

- ابتسمت... فابتسم بدوره.

أنا أكلت الحمد لله... ثو اني هغير هدومي و انزل معاك.

- خلاص هستناكي وأمري لله.

- هههه غصب عنك.. متقدرش متستناش.
- أكييد.. يلا بسرعة هستناكي تحت.
- حاضر.. قالتها.. ونظرت في المرآة تتأمل ابتسامتها.

** ***

خبر كتب في الصفحة الأولى، على الهامش عنوان صغير، حادثة غامضة بالطريق العام تثير الجدل ولم يتم التعرف على الجثث وبجانبها صورة للجثتين.. عثرت الشرطة أمس على جثتين في سيارة على طريق مصر إسكندرية الصحراوي.

لم تصبها أي خدوش وأثبتت المعاينة المبدئية بوجود شبهة جنائية.. جدير بالذكر أن أداة الجريمة كانت بيد أحد الجثتين لكنها تحمل بصمة ما زالت مجهولة! دوى الخبر ليومين ثم تلاشى كأن لم يكن.. كباقي الحوادث.

دق هاتف (أميرة) كثيراً حتى أفاقت على صوته، تقرأ اسم المتصل لتجدها (نهاد) رفيقتها.

- أيوه يا (نهاد)... في حد يتصل بحد دلوقتي!
- الضهر أذن يا بنتي.. المهم انتي فين؟
- في البيت.. خير في حاجة؟!
- مقرتيش جرنال امبارح أو أول؟!
- وده من امتي بقى.. لا طبعاً ليه؟!

أصل ناشرين صورة لحادثة... والعربية شبة بتاعة بباكي جداً.

- بابا مسافر من يومين يا بنتي منا قايلة لك..
- آه ما هو ده اللي خلاني أكلمك.

- إيه؟

- الاتنين اللي كانوا راكبين ماتوا من يومين..

- هاتي الجرنال وتعالي.

- ماشي مسافة الطريق بس.

- بعد مرور نصف الساعة.. طرقت (نهاد) باب منزل (أميرة).

(نهاد) طالبة بكلية تربية قسم لغة عربية كانت رفيقة (أميرة) منذ الصف الأول الثانوي، عندما انتقلت للعيش بمكان آخر، وظلت صداقتهم كما هي بل اشتدت أواصرها.

حتي صارتا مقربتين أكثر من أختين... فتاة ذات عود فرنسي كما يصفونها.. بشوشة الوجة لها شعر كستنائي قصير.. ترتدي نظارات طبية تضفي عليها جاذبية.

- خشي يا (نهاد) و اقفلي الباب.

- الجرنال أهو.

- التقطته (أميرة) منها عندما لمحت ثياب المرأة في الصورة تشبة ثياب والدتها.. كما أن ذلك القميص الذي يرتدية الرجل يشبة ذاك الذي اختارته مع والدها.

صدفة غريبة... صدفة مقبضة.. تركته من يدها وذهبت لتطمئن أن هذه الملابس موجودة وأنها مجرد تشابة لا أكثر... حسناً لا يوجد ملابس من الطبيعي أن لا أجد ملابس فقد أخذاها في حقائبهما.

- (نهاد).. هما قالوا الجثث دي فين دلوقتي؟

- مشرحة زينهم.. ليه؟!

- عايزة اتأكد ان مش هما دول.. هتيجي معايا؟

- يا نهار اسود آجي فين؟

- المشرحة.

- لا أنا آجي معاكي Shopping.. مستشفى أي مصيبة سودا.. إنما مشرحة... جتتي ملبشة لوحدها.

- خلاص متجيش هروح لوحدي..

- يا دي النيلة يلا يا ستي خلينا نخلص.

بعد زحام وطريق طويل وصمت مبالغ فيه، وصلا أمام البناية.. عندها أتى صوت رجل حاد اللهجة! كان من رجال الأمن.

- أي خدمة يا أنسة؟!

- عايزة اتعرف على الجثتين دول ثم ناولته الجرنال.. وأشارت بإصبعها للصورة.

- أيوه.. دول وصلوا من يومين كدا.. ادخلي على إيدك اليمين واسألي على الشيخ سعيد هو هيساعدك.

- ماشي.. شكراً.

نبضات قلبها الثائرة تعلو.. خوف مرتقب.. لماذا تشعر بكل هذه البرودة؟.. نفضها صوت (نهاد):

- (أميرة).. انتي و اقفة ليه.. في إيه؟

- مفيش.. مش هي دي الأوضة؟!

- أيوه .. اسألي على الشيخ سعيد ده.

- لو سمحت عايزة الشيخ سعيد.

- أنا الشيخ سعيد، اؤمري يا بنتي؟

رجل ستيني العمر... يرتدي قبعة بيضاء صغيرة على رأسه، يظهر منها شعره الأبيض من الجانبين وجلبابا بني اللون ويمسك بيده سبحة.

- أنا عاوزة اشوف الجثتين دول وناولتة الجرنال.

- نظر لها ثم نظر للصورة مرة أخرى.

- هتصل بالرائد حسام... علشان لو اتعرفتي عليهم.

- عايزة بس اتأكد انهم مش أهلي.. بالله عليك دقيقة بس.. ثم دمعت عيناها.

- يا محماااا... تعالى خمسة كده!

ده محمد الصعيدي هيدخل معاكي ربنا يجيب العو اقب سليمة.

أومأت برأسها حين أمسك بذراع محمد قائلاً: متعوقش.. مش عايزين ندخل في سين وجيم.

- حاضر يا عم سعيد.

- أمسكت (أميرة) بيد (نهاد) حتى اقتربا من باب الثلاجة.

- معلش يا آنسة هتدخلي لوحدك.

- لا هتدخل معايا.

- تدخل معاكي فين يا أستاذه! عدم اللا مؤاخذة إنتي مش داخلة جونينة.. دي تلاجة فيها جتت ميتة والميت له حرمته.. دا لولا عمي سعيد مكنتش دخلتك.. والنعمة الشريفة أنا جايلك خصوصي.

- خلاص خلاص.. ادخلي يا (أميرة).. هستناكي هنا.

لم تنظر لها ودخلت من باب يفصل بين الحياة والموت.

غرفة بشعة.. مُقبضة بكل ما للكلمة من معنى.

دواليب حديدية كثيرة.. بها المئات من الأدراج.. مئات الجثث تزداد أوصالها برودة.. تتشتت الرؤية.. ينتشلها من شرودها:

- هنا يا أستاذة.. قالها ذاك الصعيدي برتابة موظف حكومي قاربَ على إنهاء خدمته.. فتح أحد الأدراج لأحد الدواليب.. ليخرج منه كيس أبيض.. يفتحه ليظهر لها جثة.. رجل يشبه أباها.. إنه هو.. اقتربت منها تتأمل تلك

الكسور والشروخ والخيوط الشنيعة التي بدلت ملامحه؛ شفاهه الزرقاء جمدت الدم في عروقها.. وخزّت صميم قلبِها.

هل جربت تلك الصدمة التي تحبس انفاسك.. ينقبض لها قلبك ولا ينبسط نفضها صوت ذلك الصعيدي مرة أخرى: ودي الجثة التانية يا آنسة. قالها ببرود أعصاب جلبها منا القطب الشمالي.

تفقدتها بهدوء... وخزّت الصدمة قلبها مرة أخرى... إنها أمها.. لمست وجهها... قبّلت جبينها.. تحجّرت الدموع في مقلتيها.. ابتعدت عنها دون أن تشيح بنظرها.. ثم اقتربت من أبيها وهمست بأذنة باكية.. معاتبة.. تلومه وتعلم أنها لن تسمع رداً يريح قلبها.

- لية كده يا بابا.. ليه؟! مشيت وسبتني؟

قولت لك: خايفة اصحى في يوم ما ألقاكوش جنبي، مسمعتش كلامي.. وضعت وجهها على وجهه.

أحست بدمعة نزلت من عينه.. مسحتها بيدها ثم صرخت.

- بابا.. انت صاحي مش كده.. رد عليا.. إنتو بتعاقبوني ليه.؟

جذبهما ذلك الصعيدي من يدها.

- يلا اطلعي برة قبل ما حد ييجي وتودينا في ستين داهية.. ثم أخذ يغلق الأدراج بسرعة

- بابا ما ماتش... طالعة. والله صاحي.

رجعوا لي بابا وماما.. صاحت كثيراً حتى ذاب صوتها بين جدران حنجرتها.. وجدت صديقتها في مواجهتها.. لم تتكلم.. كان الموقف لا يحتمل الكلام.

صوت بكائها الخارج من صميم قلبها يهز خلايا جسدها ويقشعر أبدان من حولها.. دفنت رأسها في حضن صديقتها.

من صاحب مقولة: الصديق وقت الضيق؟!

البقاء لله يا بنتي.. شدي حيلك. كان ذلك صوت الشيخ سعيد.. لم تعرف يوماً رداً على هذه الكلمات.

اكتفت بهز رأسها.. لماذا لا تفقد وعيها وتجد نفسها على فراشها، كما يحدث في الأفلام؟... لماذا تشعر بكل دقيقة تمر؟.. وكل ثانية يقطعها عقرب الثواني؟... لماذا لا يلدغها ذاك العقرب لتموت في سلام؟.. لتذهب بجانب والديها في مرقدهما الأخير؟

اتصلت (نهاد) بأبيها.. ووصل بعد وقت ليس بقليل.

أنهى تصاريح خروج الجثتين.. انتهى من مراسم الدفنة.. العزاء.. بعض الجيران القدامى وآخرون من سكان العمارة.. انتهى اليوم وانتهى العزاء ورحل المعزون إلا (نهاد) ووالديها.. عرضا عليها أن تذهب للعيش معهم لكنها امتنعت وشكرتهم.. ورحلوا... جميعا.

قامت من مجلسها لتغلق باب شقتها.. حتى وقف بمقابلها.. مطأطئ الرأس.

- البقاء لله.. شدي حيلك.. لو احتاجتي أي حاجة انا موجود.

- شكر الله سعيك.. معلش مينفعش أقولك اتفضل.. الوقت اتأخر وأنا لوحدي.

- (أميرة) أنا أسف.. حاولت اكلمك كتير بس...

قاطعتة بلهجة حادة..

- شكر الله سعيك يا (أحمد).

وأغلقت الباب في وجهه.. لم يكن باب شقتها فقط بل باب علاقتهم ككل.. أنهت كل ما كان مفتوحاً وقطعت كل الخيوط التي تربطهما... كانت تلك بمثابة النهاية نهاية الحياة القديمة.

*****

اهتزازات المصباح في الغرفة... صوت الهواء العابر من بين زجاج النافذة.. رعشة تسري بجسد ذلك الكهل.. يهدأ.. يفتح عينيه.

يعلم بوجودك.. يبتسم تلك الابتسامة الصفراء ويرمي أور اقاً في تلك النار التي أمامه.. فيثير غضبها وتعلو في اعتراض صريح.. فيشير لها بيده اليمنى لتخمد مرة أخرى.. يتكأ على عصاه حتى يصل لدولاب صغير معلق على الحائط.. يلتقط مفتاحاً علقه بقلادة على صدره.. أولجه في فتحته.. التقط صورة.. تأملها جيداً.. أخذ يطويها عدة مرات حتى أصبحت في حجم عقلة الإصبع.. وضعها في زجاجة وأحكم إغلاقها بدوبارة!

تمتم ببعض الكلمات.. ثم وضعها بداخل الدولاب وأغلقه مرة أخرى.. نظر للفراغ بعين مشتتة قائلاً: "لن نقبل إلا بالرضا عنا".

"لك منا الطاعة ولنا منك العفو والمغفرة"!

*****

الساعة الثامنة مساءً. في منزل عمر..

- حضرت لك العشا بإيدي..

قبّل يديها..

- تسلملي إيدك..

- عملت إيه مع (مروان).. "قالتها وهي تضع له الطعام في طبقه".

- هقابله النهار ده.. وهنتكلم بشكل ودي ف الأول.

- وبعدين؟!

- بعدين لو مو افقش نلجأ للمحاكم.

- ربنا يسهل.. أنا هروح اقعد عند ماما بقى.

- ليه.. حد من الجيران ضايقك؟!

- أنا مش هستنى لحد ما يضايقوني.

- زي ما تحبي.. لم يكد ينهي كلامه حتى صرخت (مريم) من ألم في معدتها.

- بطني يا عمر بتقطع.

- ما لك بس.. من إيه طيب.. شكلك مابتعرفيش تطبخي ولا إيه؟!

- مش قادرة.. وديني لدكتور وبطل هزار.

- حاضر.. حاضر.. هطلب دكتور قريب هيجي.

بعد حضور الدكتور ورحيله ساد صمت طويل.. نتج عنه طنينٌ بالأذن يشبه طنين النحل يتردد في أذن عمر.. تلك الكلمات الأخيرة التي ألقاها الطبيب: "مبروك المدام حامل" وما بعدها من نصائح.. متاكلش.. متشربش.. ترتاح.. إلخ.

- أنا هقوم أروح عند ماما.. ويا ريت لما تقابل (مروان) متقولوش اني حامل.

- من حقة يعرف.

- علشان خاطري يا عمر.

- ماشي.

- أنا خارج.. لما تنزلي ابقي اقفلي الباب كويس وخدي بالك من نفسك.

- أومأت برأسها.. إيجاباً.

خرجت من منزله قاصدة منزل والدتها.

استقبلتها بنوع من القلق سببته تلك الحقيبة التي تحوي ثيابها.. قصت عليها ما حدث واستبدلت بعمر صديقتها.

- يا ألف نهار أبيض.. هبقى جدة يااااه أخيراً.. الواد (مروان) ده لازم يتربى... سيهولي..

المهم لو جت بنت سميها (ألفت) على اسمي.

- معلش يا ماما هسميها (فريدة)..

- ارتعشت ملامح والدتها ثم أردفت:

- ف... (فريدة)! اشمعنى الإسم ده يعني؟

- قصت عليها تلك الحكاية أيضاً.

كانت لكلماتها وقع النصل في قلب والدتها!

ثم تمتمت هامسة... يا نهار اسود.. لتكون اللي في بالي.. استرها يا رب.

في إيه يا ماما..

- مفيش..

- مفيش إزاي.. احكيلي يا ماما في إيه.

يمكن أقدر أشيل الرعب اللي على وشك ده.

كانت لا بد أن تحكي لأحدهم ذلك العبء الذي حملة قلبها لأعوام من ٣٥ سنة.. اتجوزت أبوكي.. كان صعيدي وطبعاً كان زي باقي الرجالة نفسه في ولد.. حملت فيكي ولما اتولدتي كان متضايق مني.. بس نسي بعدها بفترة.

المهم... كان كل شوية يقولي مش هتفرحيني وتجبيلي الواد بقى.. لحد ما جه يوم وقالي: لو ما جبتيش ولد.. هتجوز عليكي.. أنا عايز واد يشيل اسمي.. ويبقى سندي في الدنيا.

حكيت لواحدة جارتي لما فاض بيا.

قالت لي: ده فية شيخ اسمه أبو الفضل.. سره باتع.

وياما جاب الواد لناس كتير.. الله يجحمها مطرح ماهي قاعدة!

دلتني على مكانه.. ورحتله أنا وهي.

طبعاً دفعت دم قلبي عليه.. إداني إزازة زي إزازة المايه.. ريحتها تقرف الكلب.. قالي أرش بيها الحمام وعتبة الباب قبل ما ابوكي يجي واداني ورقة مكتوب عليها رموز كتير.. أرسمها على جسمي.. بالطول في خط واحد.

وقل بعد شهر هتبقي حامل.. تعالي لوحدك وفعلاً بعد شهر عرفت اني حامل.. ورحتله رسم على بطني رموز وحروف عربي وحاجات كتير بالدم.. وجه عند حرف واحد وقال: هكتبه بالنار وأول ما النار لمستني فضلت أصوت لحد ما أغمي عليا.. صحيت لقيته بيقولي: روحي وما تجيش هنا تاني.

بعد ٨ شهور جالي الطلق.. ولما جت الداية تولدني.. قالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم... ربنا يعوض عليكي ومشيت.

لما قمت أشوف ابني افتكرتة ميت.. بس للأسف مكنش مات.. كانت بنت.. عنيها بيضا ولا حتى عيطت زي باقي العيال، أبوكي شاف المنظر.. سابني وخرج.. مرجعش غير وهو ميت غرقان.. رمى نفسة في الترعة.. المهم.. الحال ضاق بيا.. وبيكي وبأختك.. مكنش الطب اتقدم زي دلوقتي.. وحتى لو كان اتقدم مكنش معانا فلوس يوم بعد يوم البت بقت تكبر.. سميناها (فريدة) مبتتكلمش ومبتشوفش... بس بقت بتسمع كويس.. رحت للشيخ أبو الفضل تاني وأخدتها معايا.. أول ماشافها اتنفض من مكانه.. وقال: سلام قولا من رب رحيم!

قولت له: إيه يا بركة؟... فين الواد اللي قولت هتجيبه.. دفعت كل اللي حيلتي وخليتني ابيع الصاغة اللي ستراني عشان الواد وف الآخر جت دي. وقضت على أبوها!

- خدي فلوسك وفوقيهم أضعاف بس امشي من هنا.. وخديها معاكي. ورد عليا بالبوء ده.

قولت له: مش همشي غير لما افهم إيه اللي حصل.

قالي: هفهمك بس تمشي.. أنا لما كتبت الطلاسم على بطنك وعزمت.. كنت هكتب آخر طلسم بالنار علشان ما يقربش منك شيطان وما يبقاش الجنين من نسله، وكان شرطه الوحد انك تكوني في وعيك.. بس وقتها انتي أغمي عليكي أكتر من نص ساعة.. ومقدرتش أمنع أي حاجة هتحصل.. قولت لك: ما ترجعيش هنا... ولما جيتي دلوقتي عرفت ان بنتك من نسل شيطان. نوع هجين.. بشر وشيطان انتي سمتيها (فريدة) مش كده؟ قولت له: أيوه.. قال هو كان عايز كده بالضبط.

و أنا اخاف اعملها حاجة وتتقلب عليا فالآخر.

قولت له: يعني أنا بنتي شيطانة؟! قالي: لا بنتك هجين... مع الوقت هتتحسن بس اصبري عليها... مقدرتش استنى لحد ما يكمل قومت أمشي... فوقفني وإداني كل الفلوس اللي دفعتها... بعدها بيومين رحت ملجأ للأطفال وقابلت ناس هناك بيسألو عن طفل للتبني... في نفس الوقت كنت بقول لأصحاب الملجأ اني لقيت البنت دي في الطريق... رفضوا ياخدوها... علشان ظروفها الصحية وبحجة مفيش مكان ليها... قابلت الناس دي و أنا خارجة قولتلهم دي بنتي وحالتي المادية متسمحش اني أعالجها...أخدوها.. والغريب انهم ما لاحظوش انها مبتشوفش.. ومن وقتها معرفش حاجة عنها.. آخر كلمة قالوها إنها فعلا (فريدة)...

اسم على مسمى.. المهم اني مكنش عندي استعداد أخلّيها في بيتنا.. دي تجبلنا اللعنة.. أعوذ بالله.. بعدها رجعت لك وقولت لك انهم حجزوها في المستشفي.. وبعدين قولت انها ماتت هناك.. زعلت شوية ونسينا... فتحت مشروع و اتنين وتاجرت واغتنينا و انتقلنا للبيت اللي إحنا ساكنين فيه دلوقتي بعيد عن كل القرف بتاع زمان.. وعلمتك ودخلتك الجامعة وبقيتي

صحافية قد الدنيا.. ومسمعتش عنها أي أخبار.. لحد ما انتي جبتي اسم (فريدة) ده هنا...

- كانت (مريم) في أقصى حالات الذهول...

هي تعلم أن أمها لا تكذب أبدا... لكن مثل هذه القصة يصعب تصديقها...

- أنا فاكرة فعلاً إني كان ليا أخت وماتت بس مجاش على بالي اسمها.

- وطبعا انتي خايفة تكون راجعة تنتقم صح؟

- الصراحة اه.

- اتطمني يا ماما مفيش حاجة من الكلام ده.

الموضوع كلة صدفة... ربّتت على يدها في حنان كانت تتمنى أن يكون مجرد صدفة وليس حقيقة مفجعة.

****

"حياتك ليست سوى طلسم غريب يجهل سواك كُنهه".

****

* بعد مرور شهرين على (أميرة)... يتكرر يومها كل يوم امتنعت عن محادثة أحد.. وفقط تذهب لاختباراتها وتعود لمنزلها... تدفن نفسها بين ذكرياتها وكتبها.. يأتي على ذاكرتها كل ما قرأته عن نفسها عن والديها اللذين ليسا والديها حقاً.. عن ماضيها.. يداعب ذاكرتها تخيل مستقبلها.. تذكر جيداً تلك الجملة التي خطها والدها بالقلم الأحمر.. كل شيء تريده يحدث كما تفكر به تماماً.

طرق الباب عدة طرقات كانت تعلم أنها (نهاد)... فهي التي تأتي من وقت لآخر للاطمئنان عليها.

- ازيك يا ميرو... جيبتلك جاجة حلوة.

- شيكولاتة صح..

- لا قطة... عارفة ان كان نفسك فيها.

عانقتها (أميرة) شاكرة لها.

- ها هتسميها ايه بقي.

- مممم ممكن داندي... حلو صح؟

- جداً.

- كنتي فين كدا؟

- كنت بشتري فستان علشان خطوبة ياسمين.

-امتى؟!

- النهار ده.. في القاعة اللي بعد الجامعة.

- معزمتنيش يعني.

- ممكن خافت تقولك متجيش علشان الظروف اللي انتي فيها.

- الظروف اللي انا فيها ولا علشان اتخطبت لـ(أحمد)؟
- معرفش بقى متشغليش بالك انتي.
- أكيد.. و ابتسمت ابتسامة صفراء.
- همشي انا بقى.. لو احتجتي حاجة كلميني.
- تسلميلي.. وميرسي على القطة.. باي.
- باي.

أغلقت الباب خلفها ثم جلست تحدث نفسها.

- بقى كده يا (أحمد) ماشي هتشوف يوم عمرك ما هتنساه.
- أخرجت ثيابها ووضعتها على فراشها.

تأملت نفسها أمام المرآة... حدثتها.

ليس عليّ أن أكون كما هو مقدر لي... سأكون كما أريد أن أكون... وأول ما أريده هو أن ألقّن (أحمد) درساً لن ينساه... ابتسامة خبيثة لم تكن تعلم لشفتيها طريقًا من قبل... كان اليوم.. هو يوم تحول (أميرة) من فتاة ساذجة عفوية... بريئة الملامح والطباع... مطيعة وهادئة... لابنة الشيطان.

****

في تمام التاسعة مساءً كان الصخب يملأ أرجاء القاعة.. عندما دخلت فتاة من الباب... هدأ الصخب... وظل صوت الموسيقى... تهامس الحاضرون.

- من دي؟
- مش ممكن تكون هي.
- قريبة العريس شكلها...
- يخربيت جنانك.. كنت حاسة انك هتعملها تلك الأخيرة كانت لـ(نهاد).

اقتربت من العروسين.. و انحنت على كتف العريس وهمست بأذنه:

- مبروك يا (أحمد) ولا أقول يا (حسني)؟ ثم اتجهت للعروسة.

- مبروك يا سمسم... أدارت ظهرها لهم ولم تنتظر رداً.

عندها تأملها (أحمد)... قال بنفسه: لم تكن بتلك الأنوثة الطاغية من ذي قبل... كيف حولت نفسها من (أميرة) لذاك الصاروخ؟ لم تكن الكلمات كافية لتصف جمالها اليوم... فقد ارتدت فستان أحمر اللون.. يبرز نهدين من القشطة و انشق ليكشف عن ساقٍ قد صُبت صباً... مصقولة كالزجاج وشعرها الذي انسدل على ظهرها بحركات مموجة زادها أنوثة... على أنوثتها... ونظرتها الثاقبة التي تكاد تخترق جدار قلبك... نظرة و اثقة تعرف ما تريد... رفعت كفها الرقيق الذي زين أناملة طلاء أحمر تبعث بسلام لرفيقة دربها... (نهاد).. التي ابتسمت بدورها وتمتمت: "مجنونة"...

نظرت لذلك "الواد المطرقع" الذي يقف على الدي جي وأدارت أصبعها في الهواء بمعنى: "غير الأغنية".

التقطت وشاحاً رابضاً على كتف إحدى الواقفات وانتصفت القاعة... ربطت وشاحها المحظوظ على ذلك الخصر العجيب... هدأت الأضواء و اتجهت نحوها... بدأت ألحان الأغنية بالتسرب داخل جسدها وتمايلت فتمايلت معها الروؤس... واهتز خصرها حتى كاد يسبب زلزالاً.. ورفعت شعرها بيديها تمايلت.. وضغطت على شفتيها... كما ضغطت على أعصاب (أحمد).. قام من مجلسة لينهي هذا الهراء ونظرت له بمعنى: لم ينتهِ العرض بعد... غمزت بعينيها فجرحت رموشها قلبه... التفت مولية ظهرها له.. هبطت بمنحنياتها ثم صعدت فبرزت ساقها... وضحكت في غنج ونظرت له نظرة أخيرة وكتبت على ملامح وجهها بالبنط العريض: "ستندم" أشارت بيدها فتوقفت الموسيقى... همست في أذن أحد العاملين بالقاعة ثم همت

بالانصراف... صفق الحضور بحرارة كما لو كانت راقصة استعراضية تنهي فقرتها في كباريه.. جاء صوت من خلفها فابتسمت.

- مكنتش اعرف انك بالحلاوة دي.

- ميرسي لذوقك يا دكتور.. حضرتك منور هنا؟

- منور إيه دا أنتي النور كله. وبعدين الألقاب دي خليها للكلية مش مناسبة زي دي.

قطع حديثهما صوت الأغنية التي طلبتها (أميرة): إنت يا اللي خدت قلبي من الزمان ومن اللي فيه.

- هستأذنك... لازم امشي.

خدت قلبي لدنيا تانية أحلى من اللي حلمت بيها...

- بدري كده... دا أنتي مكملتيش نص ساعة.

- كنت جاية اعمل الواجب.

أحلى عمر أنا عيشته جمبك والحنان عندك كتير.

- أنا عارف انتي جاية ليه.

- هو في كده زي قلبك؟

- بالظبط هو اللي في دماغك.

- لسة في فالدنيا خير؟!

- معاكي عربيتك؟

عمري ما انسى أنا قبلك كنت فإيه ومعاك بقيت أنا ايه...

- لا هاخد تاكسي.

أنا باقي ليك ولحد ما عمري...

- خلاص هاجي اوصلك.

ينتهي.. هفضل يا حبيبي معاك وهعيش واموت بهواك... أنا ليا مين غيرك حبيب عمري...

- ملوش لزوم أتعبك معايا.

- لا اتعبيني ملكيش دعوة.

رحلت وذيل فستانها يلهث خلفها.

فتح لها باب السيارة.. فأردفت:

- دا كتير عليا.

- إنتي ملكة النهارده والمفروض نتعامل معاكي على أساس كده.

ضحكت وأردفت:

- هههههه.. كلك ذوق ي دكتور.

- صعد لمقعدة وقال هامساً: طب ما تقولي لي: يا (شريف).

- يعني ميصحش وكده.

- عايز اسمع اسمي منك.. ممكن؟!

- أوي أوي... يا (شريف).. ونظرت في عينه.

- أنا لو اعرف إن اسمي حلو كده كنت خليتك تقولية قدامي كل يوم.

- ضحكت واحمرت وجنتاها في خجل... بعد مرور وقت من الصمت لا بأس به:

- تعرفي ان الفستان دة مخليكي "saxy lady".

- عارفة.

- يا و اثق انت.

- أيوه... على إيدك هنا بقى.

- ساكنة هنا؟!

- أيوه .. ميرسي.

- لو احتجتي اي حاجة متترددیش تقوليلي.

- أكيد طبعا.

- باي.

- باي.

صعدت الدرج لأنها مولعة بعد درجاته مع أنها حفظتها عن ظهر قلب.

- حداشر... اتناشر.. سلمة مكسورة... اربعتاشر وهكذا حتى وصلت.. أولجت المفتاح في الباب تكة... وفتح... هناك شريك بالسكن الآن.

- داندي؟ داندي؟ لم تتلق إجابة.. علها لم تعتد هذا الاسم الجديد.

- أخرجت رأسها من تحت الطاولة... مياااو...

تنظر خلف (أميرة) ثم تختبئ مجدداً.

ذهبت لها (أميرة) لتخرجها فامتنعت: "إيه اللي مخوفك طيب؟" نظرت خلفها لتجد دخاناً كثيفاً على هيئة رجل... قالت بفزع: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

****

جالساً في غرفته على فراشه... يمسك بهاتفه وتراوده فكرة أن يتصل بها... ويتراجع فهي على كلِ فكرة سيئة.. توقد شاشة هاتفه فينتفض فزعاً... لجزء من الثانية ظن أنها من تتصل.

- أيوه يا (ياسمين) في حاجة؟!

- أبدا كنت عايزة اسمع صوتك قبل ما انام.

- ماشي تصبحي على خير يا حبيبي.

- (أحمد) أنت كويس؟!

آه كويس.

- أنا عارفة انك متضايق من تصرف (أميرة) النهار ده.. إنسانة غبية فعلاً... بس النهارده كان أجمل يوم في حياتي.

- لو سمحت يا (ياسمين) متتكلميش عليها كده تاني.

- لسة بتحبها صح؟!

- صمت وتنهد في ضجر.

- مبتردش ليه؟... خطبتني ليه لما أنت بتحبها أووي كده؟

- بقولك اي روحي نامي احسن.

- بتهرب من الإجابة... ماشي براحتك.

- سلام... قالها وأغلق الهاتف لم ينتظر رداً منها حسنًا لن ينكر أنة ما يزال متيمًا بها... لطالما عشق تراب قدميها.. أخطأ بحقها.. لم تسامحه.. كان ذلك حقاً لها... فما مرت به الفترة الأخيرة لم يكن بالأمر الهين... لكنة لم ينتظر... لم يحاول مجدداً.. اكتفى بمرة واحدة... بحث عمن تعوض وجودها... ولم يجد...فقط أراد أن يبرهن لها أنه لن يموت من غيرها... بل أصبح يعاني مما هو ألعن من الموت... يتعذب مع غيرها.. تحتضن يداه يد أخرى.. يداه التي قالت عنهما (أميرة): إن تلك الفراغات التي بين أصابعك.. أوجدها الله حتى تملأها أصابعي أنا فقط..

لن يسامح نفسه على جرحها مرتين.. الأولى عندما اقتحم جسدها والثانية عندما خطب غيرها.. يعلم أنها لن تسامحه أيضاً... فقد وصلته رسالة واضحة منها اليوم.. كانت فاتنة جداً.. ملفتة كطائرة 16 f في سماء صافية.. ودّ لو ير اقصها...يعانقها.. ينعم بلمسة يديها على وجهة مرة أخرى.

لكنها نشبت حريقاً بصدره..أعلنت عليه الحرب التي سيخسرها وحده... داعبت ذاكرته بتلك الأغنية... ألهبت غيرته عندما رحلت مع (شريف)..

كان يود أن يترك الجمل بما حمل ليذهب خلفها... يجذبها من ذراعها... وعندما تعترض يصفعها على وجهها... ثم يحتضنها ويخبرها... "انتي بتاعتي لوحدي" هيهات على خياله الواسع الذي ينتشله من تعاسته وبؤسه.. فهو لن يهدأ حتى يكسبها مجدداً وهذة المرة لن تضيع منه أبداً.

****

في مكتب (عمر) جلس معه (مروان) واضعاً قدمة فوق الأخرى يداعب سيجارة بيده

- يعني دا أخركلام عندك يا (مروان)؟

- تأمل ذلك البورترية على الحائط ثم داعب أظافريده وهو يقول:

- أيوه مش هطلق.

- خلاص براحتك... إنت اللي جبته لنفسك!

- أستأذن أنا بقى.

قام (مروان) من مجلسه وأطفأ سيجارته واستدار ليعطي (عمر) ظهره.. فيما تنهد الأخير ثم اردف متردداً.

- (مريم) حامل.

التفت (مروان) له ثم حك خلف عنقه...

- أنا مبخلفش.. هتبقي حامل ازاي؟!... العب غيرها يا متر.

- اسألها.. أو اتأكد بطريقتك.

- عرفت منين إن مراتي حامل؟!

- وقعت كلمة مراتي كالنصل في قلب (عمر).

- بلع ريقه... نسيت انها موكلتي ولا ايه؟

وبعدين هي وصتني مقولكش... علشان ميبقاش بينكو أي حاجة تربطكوا ببعض.

- إنت ليه قولتلي؟!

- الطفل ملوش ذنب في غلطتكوا دي.

- محامي انت ولا مصلح اجتماعي؟!

عموماً متشكرين يا سيدي.

قال حامل قال.. هو احنا ف ابريل و انا معرفش؟..

سلام يا متر.

خرج وأغلق خلفه الباب عندما تمتم (عمر) في نفسه.

- غبي... معاة نعمة غيره يتمنى ضفرها...

ربنا يسامحك يا (مريم)... انتي اللي عملتي فينا كده.. أدار كرسية اتجاه النافذة وشرد في ماضٍ بعيد لن يقترب.

*****

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم...

إيه ده؟! أدارت (أميرة) ظهرها لذلك الدخان بحثاً عن قطتها... وعندما عادت لتنظر له مرة أخرى لم تجده.. (سلام قولاً من رب رحيم).. هو في إيه؟ سمعت همساً بأذنها يخبرها أن (شريف) ما يزال اسفل منزلها... وقفت خلف نافذتها لتجدة بالفعل لكنه بدا مختلفاً بعض الشيء .. أصبح أكثر طولاً لا تكاد تميز وجهة من الظلام.. امسكت هاتفها و اتصلت به.. فإذا به يمسك هاتفه ويجيب..

- أيوه يا ميرو.

- كنت بس عايزة اتطمن عليك.
- اتطمني... أنا وصلت ونايم كمان.
صعقها الرد..
- نايم؟!
- أيوه.. هو مش باين على صوتي؟!
- لا.
- طب اقفلي الشباك علشان متاخديش برد.
- ها!
- تصبحي على خير.. قالها وأغلق الهاتف.
- هو في إيه؟.. شكلي وحش أوي كده.
هيفتكر اني مهتمة بيه وبر اقبه وهيعمل لنفسه حوار.. وبعدين إيه اللي موقفه تحت بيتي لحد دلوقتي؟! شكله معجب يا ميرو يا جامد.. احم... احم.
احتضنت قطتها وبدلت ملابسها وملا اعتدلت على فراشها دق هاتفها.. مضيئاً برقمه!
- (أحمد)؟!
- أيوه... ازيك.
- أحسن منك.
- يارب دايماً يا ستي.
- خيرياااا... عريس.
- (أميرة)... متصدقيش (شريف).
- مصدقوش ف إيه؟!
- في اي حاجة يقولها لك.
إنتي متعرفيش هو ناوي على ايه.

- و انت مالك... شاغل نفسك ليه؟

خليك فحياتك و... حبيبتك.

- أنا مالي ازاي... متستهبليش... انتي عارفة كويس اني خايف عليكي.

- هعمل نفسي مصدقاك... وهقولك حاضر.

حاجة تانية؟!

- لا يا (أميرة) براحتك.. سلام.

- أغلقت الهاتف دون أن ترد السلام.. مرشبح!

ابتسامة على شفتيها.. تنهدت بارتياح.. على الأقل تأكدت أنها تربعت على عرش قلبه ولن ترحل أبداً.. أطفأت نور غرفتها وذهبت في سبات طويل.

*****

بعد مرور أسبوع جلست (أميرة) في مقهى بإنتظار (شريف) الذي اتصل بها الثانية ظهراً يعطيها موعداً لأنه يريدها بموضوع مهم للغاية كما قال... بعد دقائق وصل (شريف) يرتدي جاكيت من نوع البليزر لونه أزرق كحلي.. تحتة قميص أبيض اللون وبنطلون الجينز.. خلع نظارته بحركة درامية ثم جلس أمام (أميرة).

- اتأخرت عليكي؟!

- يعني شوية.. خيربقي قلقتني؟

- خير أكيد... تشربي إيه الأول؟

- أي حاجة ممكن برتقان.

- خلاص هناخد ٢ برتقال لو سمحت قالها ووجة نظرة لـ(أميرة).

- طمنيني عليكي.. أصلك وحشتيني.

- احم.. أنا كويسة الحمدلله.. مش هتقولي بقى؟
إيه الموضوع المهم اللي قولتلي عليه؟!
- هقولك متستعجليش.. قوليلي أخبار (أحمد) أيه؟
- (أحمد) مين؟!
- (أحمد) حبيبك.. قصدي اللي كان.. ولا انا غلطان؟
- لا كان فعلاً.
- محاولش يكلمك تاني؟!
- لأ...
- (أميرة).. من أول يوم شوفتك فيه اتشديت ليكي كنت متخيل ان ده مجرد إعجاب.. بس الموضوع طلع أكبر من كده.. أنا بحبك.. أيوه بحبك وأوي كمان.
- ابتلعت (أميرة) ريقاً كاد يعوق كلماتها ثم أردفت:
- بس يا دكتور أنا...
قاطعها (شريف):
- ما بلاش دكتور دي.
- يا (شريف) أنا مش متأكده أني ببادلك نفس إحساسك.
- و انا مطلبتش منك حاجة غير انك تدي فرصة لنفسك..
فرصة انك تحبيني.
- ابتسمت وشرد ذهنها في صراع مع قلبها.
الأخير يتوق لفتح بابه لكن الأول قد أبى.
يرفض دخول أي شخص بعد رحيل (أحمد).
- علَّه يكون من جليسي السوء أو الهاربين من الحب، أو الجارحين والخارجين عن العهد وما إلى ذلك سبيلا.

- سرحتي ف إيه؟!

- ولا حاجة.. اتفضل اشرب العصير.

نظرت له وانقبض قلبها لجزء من الثانية، ثم شردت قليلاً وأخذت ترشف بضع رشفات متأملة (شريف).

* في أحد بيوت البلد المقدس... الدولة الأبية دار حديث بين رجل عجوز وابنه.

- ألم يئن لولدك ان يعود لرشده؟!

- انقطعت أخباره منذ أن قال لنا أنه عائد لفلسطين.

- لعل سوءاً قد أصابه يا بني.

- إن أصابه سوء فقد يكون تكفيراً لذنبه.

- سامحه... فلم يعد هناك ما يستحق.

- سامحتة منذ زمن طويل، واحترق قلبي شوقاً لرؤيتة ورؤية حفيدتي التي تبناها.. حتى وإن كانت كما أخبرنا فستظل من أهلنا.. فهي تحمل اسم ولدي (عيسى).

- اتطمئن يا ولدي فما ضاقت إلا وفرجت.

- أعلم يا أبي.. أعلم.

قام الرجل من مجلسه، وقبل يد والده، ورحل.

- وضع العجوز يده على صدره.. ثم أردف: اللهم ارح قلبه واطفأ نارة اشتياقه.. واهدِ من كان لك عاصياً. ثم اتكأ على عكازه ووقف أمام منزله... يتأمل الصبية يلعبون ثم ينظر للسماء.. داعياً... آملاً لهم حياة يستحقونها.

****

على مكتب بيضاوي الشكل جلست (مريم) في موازاة (عمر) تبادلا نظرات مؤلمة تختصر جميع أنواع اللوم والعتاب فيما أنهت (مريم) جلسة التأنيب هذه قائله:

- قابلت (مروان)؟!

- أيوه قابلته... صمت لبرهة ثم ابتلع ريقه...

قولتله إنك حامل.

جحظت عنيا (مريم)... قولتله ليه يا (عمر)؟!

- من حقة يعرف.

- ومش من حقي اعيش الباقي من حياتي؟!

- حقك بس ده نصيبك يا (مريم)... حاولي تعدلي (مروان) زي ما انتي عايزة.

- اية اللي بتقوله ده يا (عمر)؟... كنت مفكرة انك هتساعدني علشان اتطلق منه ونتجوز انا و انت.. كنت مفكرة انك بتحبني فعلاً.

- علشان بحبك يا (مريم) بقول كده.

لازم اظبطلك حياتك علشان تكوني سعيدة فيها... وقتها بس هكون سعيد انا كمان.

نظرت له (مريم) بغضب ثم تركته ورحلت.

دمعت عينا (عمر).:

- آنا اسف يا (مريم).. لازم أعمل كده... هتعرفي بعدين قد إيه انا بحبك وعمري ما هحب حد قدك... والله بحبك يا مغلباني.

يجلس (مروان) على فراش نصف عارٍ يرتدي فقط سروالا داخليا "بوكسر" ... فيما كانت فرسته الجامحة كما كان يطلق عليها ترتدي ثيابها، أشعل سيجارة وهو يقول متأملاً فيها:

- تخيلي... (مريم) حامل!

نظرت له باستنكار:

- ازاي يعني؟!

- زي النسوان عادي... ايه الغباء ده؟

- (مروان) كلنا عارفين انك مبتخلفش.

ولما تقول انها حامل يبقى أكيد كانت مقضياها ملهاش معني تاني.

- هو انتي فكراها زيك... رقاصة ف كبارية؟!

- الله! اوعى تكون نسيت يا أمّور انك حفيت ور ايا علشان اتجوزك.

- منا كتبتلك مهر مكنتيش تحلمي بيه.

- هما ٢ مليون جيني! يعملو حاجة دلوقتي وبعدين مش كفاية انك قعدتني من الشغل.

- أقولك يعملوا إيه ومتزعليش؟

- إنت قفشت ليه طيب؟

جلست بجواره بعدما ارتدت قميصها الأسود من قماش الستان.. أخذت السيجارة من فمه ثم استنشقت منها نفساً وأردفت:

- حشيش ده؟!

- لأ.. قالها (مروان) ثم تركها وأخذ يرتدي ملابسه.

- رايح فين... دي الساعة أربعة الفجر.

- في داهية.

- ودي هتلاقيها فاتحة دلوقتي؟!

- (ناني)... انزلي من على وداني مش فايقلك.

ضحكت بغنج:

- حاضر يا روح قلب (ناني).. بس بقولك ايه...
- إيه... قالها بنفاذ صبر.
- إن فكرت تلعب بديلك معايا.. همحيك من على وش الدنيا.. فاهم يا حبيبي؟ قالتها وطردت دخاناً في وجهة من سيجارته التي اعتصرتها أناملها.

نظر لها نظرة حنق فهو يعلم ما ترمي له.. ثم تركها ورزع الباب خلفه.. دليلًا على العصبية.. وجال بخاطره حياته منذ أن تعرف عليها.

عندما زار الكبارية الذي تعمل به... اصطادته في شباكها وجلبت له الزبائن... بعدما أنشأت له مكتباً خاصاً به وأصبح (مروان) من أشهر مصممي الديكور.. بفضلها تزوجها بعدما طارحها الغرام عدة مرات... كتب على نفسه وصل أمانة بمليوني جنيه... أصبح هذا ذراعه الذي تلويه حتى لا يأخذ طبع الثعالب ويغدر بها... وها هي تهدده الآن.

ستودي بحياته للجحيم الذي لا عودة منه.. لا عودة منه على الإطلاق.

****

الكورنيش حيث يجتمع العديد من فئات الشعب.. عجوز يرمي بصنارتة أملاً أن يجمع عشاء الليلة.. كاتب يسرق إلهاماً من المياه والخضرة والوجوة العابرة الباسمة والعابسة.. طفل يركض على الجماعة الحبيبة المتلاصقين.. ورد يا بيه؟! ربنا يخليهالك.. منهم من ينهره بـ: "امشي ياض من هنا" وآخر من يربّت على قلبه مراضياً له ويأخذ منه وردا ليزيد في نظر "الحتة بتاعته".. كان (أحمد) ذلك النوع الأخير... حيث التقط وردة ذابلة معفنة من الفتى ليعطيها لـ(ياسمين).

التي توترت لثوانٍ ثم شبكت يدها بيد (أحمد) الذي تعجب بدوره لما فعلته ولم يكد يسأل عن سبب هذا الاشتباك.. حتى أجاب الموقف عن تساؤلاته.

(أميرة) تحمل قطتها وتمشي في الناحية المقابلة لهما.. تلتقط عيناها يد الحبيبة التي تشابكت حتى التحما معاً ثم نظرت لـ(أحمد) نظرة اخترقت نظارته... وأشاحت بنظرها بعيداً عنه.

حاول (أحمد) أن يستشف شيئًا من ملامحها علّهُ يعلم ما تنوي فعله لكنها كانت جامدة كالصخر.. لا تعبير يذكر.. رحلت كأن شيئاً لم يكن... لم يعتد عليها بمثل هذ الهدوء... لكنه لم يعلم أنه الهدوء الذي يسبق العاصفة... العاصفة التي ستطيح بالأخضر واليابس.

نفض يده من يدها بحجة أنه بيخلع نضارته.. ثم أردف مبعثراً أجواء التوتر التي اقتحمت جسده.

- عايزة تروحي مكان تاني ولا هنروّح؟!

- شكلك زهقت مني.

- لا أبداً يا جميل بس انتي عارفة اني بجهز أوراق السفر وكل حاجة بتاخد وقت وكده.

- هو انت هتسافر فين صحيح؟!

- ها..! ممم لسه صاحب الشغل ما قاليش.

- ماشي...

- ها... هنروح...؟!

- هنروح... بس هعملك بوريو بإيدي.

- ماشي يا ستي..... يلا بينا.

في هذه الأثناء دار حديث قصير... حديث صامت: وكمان ماسك إيديها... ياما نفسي إيديها دي تتشل لا تتشل دة ايه... تتقطع خالص... قطر يعدي عليها يفرمها.

علشان تحرم تلمس حاجة متخصهاش.

زفرت ببطء وكأن ما تمنته قد نالته... لم يخطر ببالها سوى جملة واحدة ورددتها مبتسمة:

" كل شيء تريده يحدث كما تفكر به تماماً".

نرجع تاني لـ(أحمد) و(ياسمين).

بعدما وصلا لبيت (ياسمين)... جلس (أحمد) مع والدتها فيما كانت (ياسمين) تحضر البوريو الذي وعدته به.

- ماما.. هو الخلاط دة جراله إيه؟

- بعد إذنك يا (أحمد) ثواني.. ده زي بيتك.

- أكيد.. اتفضلي.

- إيه يا (ياسمين) الخلاط ما له؟

- مبيشتغلش.. بصي...

- دا كان كويس من شوية... طب حركيه من جوة كده.

- اهو.. لم تكد تنهي كلمتها حتى على صراخها وهب (أحمد) و اقعاً من مكانة فزعاً ليري يد (ياسمين) دامية وقد تحولت إلى أشلاء.

- يا نهار إسود... إيه اللي حصل؟!

- والله يا ابني ما انا عارفة الخلاط اشتغل مرة واحدة وهي بتعمله من جوه.

- طب يلا نوديها أقرب مستشفى.

- كانت (ياسمين) قد فقدت وعيها تماماً.

- رن هاتف (أحمد) برسالة من (أميرة).

صعق عندما قرأها.

- أخبار إيد (ياسمين) الشمال إيه؟!

يخربيتك انتي عرفتي إزاي؟!

وبعدين هي إيديها الشمال فعلا؟!

اختلس النظر لتجحظ عيناه.. إنها اليسري كيف علمت! هناك ما لم تخبره به (أميرة).. لم يتفقا على هذا.

أعلم أنني لم أذكر الاتفاق وهذا لسبب ستعلمه لاحقاً.. نعم أوجه كلامي لك.. يا قارئ هذه الكلمات.

****

في منزل (مريم).. جلست تنتظر عودة (مروان) لتنهي كل ما كان مفتوحاً ومعلقاً... أخذت تنظم أفكارها وترتب حديثها... حتى انتشلها من شرودها.. صوت فتح باب الشقة... وقف (مروان) يستنكر وجودها... ثم وضع مفاتيحه على طاولة "السفرة"!

وخلع سترته وهو يقول:

- منورة... مش كان من الذوق تتصلي قبل ماتيجي؟!

- هو أنا هستأذن علشان أجي بيتي؟!

- لا معلش.. تعديل بسيط كده.. مبقاش بيتك.

- لا الكلام ده تقولة لما نتطلق.

- بس كده.. عنيا.. هتصل بالمأذون وييجي.

وننهي الحوارات دي كلها.

- يا ريت.

وبالفعل لم تمر الساعة حتى كان الأمر مقضياً.

راحة نفسية.. تعتريك عندما تنجز فرضاً قد أرقك ليالي طوال.. تداوي جروحك عندما تخشع في صلاة.. تسري قشعريرة ببدنك.

تتنفس الصعداء لزوال همٍّ.. جبل من كل ماهو مضرٌ لك... تسجد شاكراً.. حامداً.. على ما أنعم به ربك عليك.

بعد أن وقعت (مريم) في دفتر المأذون بعدما أسمعها بعض الكلمات مثل: "إن أبغض الحلال عند الله الطلاق" و:"سرحوهن بمعروف" وما إلى ذلك حتى انتهى، قامت من مجلسها ثم سجد قلبها باكياً.. الحمد لله!

الحمد لله حمداً كثيراً.. ثم نهضت مجففة لدموعها ورحلت لتحتفل بيوم تحرير رقبتها من يد (مروان)... لم تفكر حتى بالإتصال بـ(عمر) أغلقت هاتفها واعتكفت بمنزل والدتها لتقضي فترة نقاهتها براحة بالٍ.

- إية يا (شريف) هفضل مغمضة كده كتير؟!

- لا يا قلب (شريف) وصلنا خلاص.

- يا مسهل.

- فتحي بقي.

ذهول اجتاح وجه (أميرة).

- إيه رأيك بقى... عرفت انك بتحبي اللون الأحمر... فقولت أجيبلك حاجة باللون دة تحبيها.

-إنت بتهزر صح؟!

جايبلي عربية موديل السنة وبتقول كده؟!

إنت مش معقول... بجد ملكش حل... أنا.. أنا مش لاقية كلام أقوله فعلاً.

- متقوليش حاجة... دي حاجة بسيطة تثبتلك إني بحبك.

- حاجة بسيطة! (شريف) دا فعلاً كتير... إنت مأخدتش بالك إن دي تالت هدية تجيبها لي في شهرواحد بس؟!

وكل واحدة أغلى و أقيم من اللي قبلها.

- أنا عارف انك بتحبي الهدايا... علشان كده بهاديكي وكمان علشان تحبيني.

- أنا فعلاً بحب الهدايا.. جداً كمان.. بس صدقني مش قادرة أحبك.. قول عليا: هبلة.. أووش فقر أو اللي تحبه.

بس أنا مستحيل أقبل كل ده.. أنا مش هضحك عليك.

في حاجز بيني وبينك مقدرتش اتخطاه.

حاجة غريبة ف عنيك مخوفاني.

- إيه الكلام ده يا (أميرة)؟! تقصدي إيه بكل ده؟!

- أقصد إني آسفة يا دكتور.. مش هقدر أكمل في علاقة منتهية.

قالتها ورحلت ينبض قلبها فرحاً وعقلها يقيم إضراباً على قرراتها السريعة.

* لم تكن حادثة يد (ياسمين) الأخيرة فقد توالت بعدها الحوادث.. وازدادت وهناً حتى قرر (أحمد) الانفصال عنها ليرحمها مما هي مقبلة عليه ومما آلت إليه بسببه.. كان وحده يعلم أنها ليست مجرد حوادث طبيعية تحصل بمحض الصدفة.. كان على يقين أن لـ(أميرة) يدًا في ذلك لكن لم يكن يعلم كيف! بحث عنها كثيراً ولم يجدها.. فيما كانت هي تنصب الأفخاخ لمن أذاها ومن لم يؤذها... احتالت على الكثير ودمرت عائلات وفرقت شملهم بدافع الغيرة... لم تعد بعد الأن (أميرة)... ازدادت قوة على قوة أصبحت أجمل بكثير من ذي قبل.. طورت من مهاراتها... تعلمت كيف تسخر خدامها كيف تطيح بهذا أرضاً.. وكيف تدمر ذاك.. شيء واحد لم تتعلمه: "كيف تكون على حق".

كيف تعود كما كانت.

*****

بعد مرور عدة أشهر.. قررت أن ترحل... لا تعلم إلى أين لكنها اكتفت من هذا المكان.. لم يعد يربطها به شيء .. جمعت أغراضها ونوت الرحيل... حتى وقعت عينها على ذلك الصندوق... فتحته لتلقي نظرة أخيرة على ما فيه.. اجتاحت ذاكرتها ما قرأتة عن نفسها من ذي قبل (أميرة)... ليست سوى طفلة صغيرة كفيفة.. لا تسمع لها صوتاً... أودعتها أمها ملجأ للأطفال... عثر عليها ((عيسى) و إيمان) عن طريق شيخ يدعى (أبو الفضل).. (أميرة).. تجلب الحظ والرزق لوالديها الجدد.

(أميرة).. تبصر.. (أميرة) تتكلم.. (أميرة) أكثر فتاة مميزة على الإطلاق.. لم تكن (أميرة)... سوي فتاة (فريدة).

لم تعد تلك الذكريات تؤثر في مشاعرها وعلمت أنها ابنة للشيطان... وعلمت أنها (فريدة) من نوعها.. علمت أنها تدير جيوشاً تحت إمرتها. لم تغضب لكنها لم تكن لتسامح من فعل بها هذا ولن تسامح من أخفى عنها حقيقتها طيلة هذه السنوات.. شردت قليلاً لكنها أفاقت على تلك الورقة التي تركها لها والدها... فتحتها لتلتقط عيناها ذاك العنوان المكتوب في آخرها.. قرار سريع اتخذته... أن تذهب لهذا المكان علها تجد من يجيبها عن تساؤلاتها.. أن يفصح عن الأشياء الأخري التي لا تعلمها...

ربما تجد لنفسها.. أهلاً حُرمت من وجودهم لثواني.. رق قلبها... قلب تلك التي كانت لا تخلو حياتها من البراءة والعفوية... نفضت ذهنها وشرعت ترتب أشياءها... استعداداً للرحيل.

****

مدينة الخليل – فلسطين

تعد من أقدم مدن العالم... يعود تاريخها إلى 5500 عام بناها الكنعانيون وأطلقوا عليها اسم "قرية أربع" نسبة إلى بانيها.. ثم سميت الخليل نسبة إلى خليل الرحمن "إبراهيم عليه السلام".

كما بني المسجد الإبراهيمي على أنقاض "مغارة مكفيلا" التي قيل إنها مكان دفن إبراهيم عليه السلام وأسرته وقد وصفها الصطخري قائلاً:

"ومن بيت لحم على سمته في الجنوب مدينة صغيرة... شبيهة في القدر بقرية تعرف بمسجد إبراهيم وفي المسجد الذي يجمع فيه الجمعة قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب صفاً، وقبور نسائهم صفاً بحذاء كل قبر من قبورهم قبر امرأة صاحبه...

والمدينة في وهدة بين الجبال.. كثيرة.. كثيفة الأشجار وأشجارها وأشجار سائر جبال فلسطين وسهلها زيتون وتين وجميز وعنب، وسائر الفواكه أقل من ذلك".

* لم يكن الصطخري الوحيد الذي وصف مدينة الخليل بل كان وصفه أعم وأشمل لكل أساسياتها التي غفل عنها الكثير.. من الجدير بالذكر أنه لم يدخل هذه المدينة أحد إلا وحزن لفراقها... ذلك لعراقة منشآتها.

وأخلاق الأنبياء التي توارثها أبناؤها.. بهجة سمائها وجمال طبيعتها.

تلك الكلمات عن حب الوطن وتقديسه والحزن لفراقة والأمل في العودة له مرة أخرى لم تكن تخلو منها مذكرات عيسى، ذلك الشخص الذي هجر مسقط رأسه ومنبع دفئه هرباً من واقع مرير وذكريات مفجعة.. هرباً من هجوم نفسه عليه.. لم يستطع شرح ما بداخله.. تفسير ما كان غامضاً للجميع.. لم يستطع أن يصمد فقد اكتفى بالرحيل.. الذي لم يكن سوى بداية لمتاعب كثيرة.. رحل للأردن حيث مكث بها عامين.. تزوج من فتاة

مصرية تركت كل شيء خلفها من أجل حبهما.. رحلا لمصر واستقروهناك عانا كثيراً.. لكنهما لم يستسلما.. عمل (عيسى) في أحد الفنادق كنادل ثم أثبت جدارتة وارتقى في عمله حتى أصبح بعد أعوام مديراً لنفس الفندق.

تبنى طفلة.. كانت مصدراً للرزق الوفير.

علم بوجود ملجأ للأطفال بنفس المنطقة التي عاش فيها.. استشار أحد اصدقائة فأخبره بأنه يعلم ما هو أفضل ثم أعطاه عنواناً لشيخ يدعى (أبو الفضل) الذي قام بدوره بنصحه عن كيفية إيجاد طفل مناسب ووصف له طفله.. عمياء وبكماء.. واندهش (عيسى) في بادئ الأمر لكنه لم يمتعض بعدما علم ميزاتها فوافق على تبنيها.. عندما رآها فقد كانت سبب تحول كبير ومهم بحياته.

*****

* توالت الأيام...

(مريم) تزداد تعباً في أشهر حملها الأخيرة... أخبرها الأطباء أن الجنين سيكون مشوهاً وعلى الرغم من ذلك لم تتنازل عنه.. بل قررت الاحتفاظ به.

لطالما أرادت أن تنادى بماما.. فكان هذا أملها الأخير.. القشة التي يتعلق بها الغريق.

(مروان) يواجة مشاكل مع (ناني) لأنه يود هجرها ولا يستطيع... إذ تهدده بالسجن وضياع مستقبله.

- عاوز توصل لإيه يا (مروان) بكلامك ده؟

- بصي.. على بلاطة كده.. احنا نتطلق وكل واحد يروح لحاله.

- كل واحد يروح لحاله؟! هو دخول الحمام زي خروجه يا عنيا؟! لا يا حبيبي ما تنساش نفسك.

- صوتك بدأ يعلى يا (ناني).

- اه بيعلى ولسه هيعلى كمان وكمان ولا انت نسيت أنا مين.. أنا اللي خليتك بني آدم.

صفعها (مروان)... لتتراجع كلماتها في حنجرتها.

- اوعي تتكلمي معايا كده تاني.

- التقطت حقيبتها ونظرت له بحَنَق.

وكادت تخرج من المنزل حتى التفت له مشيرة بسبابتها.

- خليك فاكر كويس انك انت اللي ابتديت.. صدقني مش هرحمك يا (مروان).

- (ناني)... استني.

انتي عارفاني لما بتعصب مبشوفش قدامي.

تجاهلت كلامه ورحلت..

يرفع راية الاستسلام لكنها لا تأبه.. فقط أعلنت حالة الحرب ولن ترضى إلا بالنصر.

طرقات منتظمة على باب مكتب (عمر).

تدخل فتاة عشرينية ترتدي جيبة نوع "بينسل" وقميصاً ابيض من قماش الشيفون... ترجع خصلة شعر خلف أذنها وتحمل أور اقاً بيدها.

- أستاذ أسامة رئيس تحرير الجرنال اللي كلم حضرتك امبارح... بعت صحفي من عندة علشان المقال اللي هيكتبه.

- عشر دقايق كده ودخليه.

- حاضر... قالتها وهمت بالانصراف.

- إيه الأوراق دي؟

- صحيح دي أوراق قضية رفعت بيه..

سوري يا فندم نسيت أحطها ع المكتب.

- نركز شوية يا (نهى).

- حاضر.. بعد إذنك.

(عمر)... ازدادت شهرتة في الأشهر الأخيرة وعلم بطلاق (مريم)... حاول الوصول لها عدة مرات لكنه فشل وكف عن المحالولات لإنشغاله بحياته الجديدة.

*****

- سلامو عليكو... ازيك يا عم فتحي.

كان ذلك (أحمد) الذي بمدخل البناية التي تعيش بها (أميرة).

- سمحتركاتو.. الحمد لله. هكذا رد السلام عم فتحي البواب.

- تؤمرني بحاجة يا بيه؟!

- أيوه .. عايز (أميرة) اللي ساكنة في التالت.

- الست (أميرة) سافرت من سبوعين كده.

- متعرفش راحت فين؟

- لا والله يا بيه... مش فاكر.

غمزة (أحمد) بعشرين جنية وأردف: ها افتكرت؟!

- آة راحت لقر ايها في بلاد بره.. وسابت لسعادتك جواب!

- ليا أنا؟! وسايبني أسأل كل ده؟! هات يا عم.

- أهو يا بيه.. أنا عاينة من يومها مخصوص علشان سعادتك لما تشرفنا... والنعمة الشريفة كنت محافظ عليه زي عنيا.

- خلاص يا عم فتحي. قالها (أحمد) حين وضع توأم العشرين جنيها في يده.

- نورت يا بيه.

لاح بيده منهياً حديثاً مضجراً.

بعد وصول (أحمد) لمنزلة جلس على فراشه.

فتح المظروف وشرع يقرأ الرسالة.. جحظت عيناة قليلاً ثم ابتسم.. راحة بال أدركته.. لم يعرف لها طريقا منذ زمن.. أمسك بيده جواز سفر وأور اقا أخرى كانت برفقة الرسالة وشرد ذهنه في صورة (أميرة)... وتفاصيل وجهها و ابتسامتها.

*****

لا أخبارعن (نهاد) فقد انقطع اتصالها بـ(أميرة) ولم تكلف (أميرة) نفسها عناء السؤال عنها.

ذلك الكهل يجلس مجدداً أمام نيرانه ومنضدته.. يبتسم بخبث كمن نال مكافأة نظيرعمل قذر.

يمسك إحدى الورقات التي أمامه... يضعها في النار فتخللها لتذيب خلاياها.

يبتسم ثم يشرد طويلا... بلا حراك.

وكأنه يقوم برحلة للجحيم.

*****

تقطع (أميرة) طريقاً طويلاً... شوطاً لا بأس به.. في رحلتها تقف الآن على حدود تلك البلد الأبية... ليس من السهل أبداً الوصول إليها وليس سهلا أيضاً الاستغناء عنها فهي كالجوهرة وسط حقول الفضة... تلمع في أعين الحاقدين الطامعين.

لاحت لها يد ذلك الجندي... بمعنى: أريني أور اقك. انتهت من ذلك الروتين المملّ واستقلت سيارة أجرة ثم حولت بعض نقودها من الجنيه المصري إلى الشيكل الفلسطيني.

اتجهت لفندق كوين بلازا الذي يقع في منطقة عين سارة، الخليل والذي يبعد حوالي ١٥ كم عن مدينة بيت لحم حيث كان من أقرب الفنادق لوجهتها المقصودة " ترقوميا".

انتهت من تسجيل بياناتها وتركت حقيبتها في غرفتها، واستقلت سيارة أجرة للعنوان الذي دونه والداها أسفل الرسالة... بعد مرور وقت لا بأس به وصلت أمام منزل مؤلف من طابقين ووضعت أمامة عده شجيرات وبعضًا من زهور الزينة في تناسق مبهج... يريح القلب...

تنهدت (أميرة) ثم طرقت الباب عدة طرقات... فلم يأتها رد وطرقته مرة أخرى عندما آتاها صوت فتاة عشرينية:

- لحظة.

فتحت الباب لتقابلها فتاة محجبة، تمتلك وجهاً كالذي يستخدمونه في إعلانات بيبي جونسون وجهًا طفوليا!

- هلا... قالتها تلك الفتاة الملائكية.

- أهلا بيكي.. ده بيت الشيخ يعقوب؟!

- لا... ثم أشارت لمنزل بالجوار.. هاد هو.

- ماشي شكراً.

- إنتي مصرية؟

- أيوه.

- شو جابك ع فلسطين!

سؤالها كان موجة شديدة الحرارة بيوليو لا مفر منها.. كانت تعلم أنه آت لا محالة... لكن ليس بهذة السرعة.

- ما فهمتي كلامي؟! أنا بحكي مصري منيح.

- إيه جابك فلسطين؟!

ابتسمت (أميرة)..

- لا فهمت بس سرحت..

جيت لناس قر ايبي والشيخ يعقوب هيوصلني ليهم.

- ده جدي.. و أنا عبير و انتي اسمك ايه؟

- (أميرة).

- أهلا بيكي.

- هستأذنك بقى وفرصة سعيدة.

- أنا أكتر.

قبل أن تطرق الباب وجدتة مفتوحاً.

- تفضلي.. يا (أميرة).

- ذهلت قليلاً ثم تقدمت خطوة تلو خطوة حتى وقفت أمامه.

- اجلسي.. فلن نتحدث واحدنا جالس والآخر يقف على قدميه.

همّت بالجلوس على وسائده في حين قدم لها القهوة.

- أعلم انك تحبينها.

- إنت عرفت اسمي ازاي؟!

- (أميرة) عيسى صلاح يعقوب عثمان.

انتظرت قدومك طويلا... وعلمت أنك هنا من رائحة (عيسى)، إنتي ابنته.. فكيف لا أعلم؟

- أنا مش بنته وأكيد حضرتك عارف ده.

- ورثتي كل صفاته.. ملامح وجهه حتى لو لم تكن ابنته من نسله.. فهي ابنته.

- إنت مش فاهم قصدي.

- أعلم ما تودين قوله... عليكِ بتنقية روحك من الجذور الشيطانية التي تسعى لتثبيت نفسها بك.. إنتي أنقى من كونك نسل هجين.

- عرفت ازاي؟

- اعلم ما لا تعلمين.. أعلم لمَ أنتي هنا الآن.

فهل تخبريني أنت بماذا تفكرين؟

- عاوزة اعرف كل حاجة عن بابا.

- ستذهبين للإمام حسن بمسجد ابن عثمان.. سأعطيكِ العنوان لكن عليكِ أن تفعلي بعض الأشياء.. أولاً... ستمكثين معنا هنا.

ثانياً ستذهبين مع عبير ابنة عمك إبراهيم لأن دخول المسجد له آدابه.

- هزت (أميرة) رأسها إيجاباً.

- انتظريني هنا.

- حاضر.

بعد مرور عدة دقائق تأملت فيها (أميرة) تفاصيل المنزل.. بسيط بل بغاية البساطة.. هادئ ومريح.. بعض الأثاث والمجلس الأرضي وتلفازاً معلقاً بالحائط وضعت فوقة قطعة قماش منقوشة.

إناء به ماء وطبق به تمر.. وفنجانا القهوة ومرآة خلف الباب.. نظرت فيها لتجد نفسها..

ليست كما اعتادت أن ترى انعكاسها في الفترة الأخيرة.. قامت من مجلسها و اقتربت منها.

تأملت تفاصيل وجهها.. هناك دفء.. اجتاحها دفء الحصول على عائلة.. فرحة كادت تنساها.

اخترق شرودها صوت الشيخ يعقوب.

- ماذا بك؟

- ولا حاجة.. افتكرت بابا وماما بس.

- لا تخبري أحداً أنهما ماتا بحادثة.

- طب أقول ايه؟!

- قولي إنهما ذهبا للسماء.. كفرا عن ذنبيهما.

- حاضر... بس ذنب إيه؟!

- ستعرفين كل شيء عما قريب.

قطع حديثهما طرقات على الباب.

- ادخلي يا عبير.

- السلام عليكم.

قالتها وطبعت قبلة على يده.

- وعليكي السلام.. أريدك في مهمة صغيرة.

- حسناً... ما هي؟

- ستأخذين (أميرة) ابنة عمك (عيسى) تعلمينها بعض الأمور اللازمة لدخول المساجد.

- هذه هي ابنة عمي (عيسى)؟! تهللت بفرح حسناً سنذهب في الحال... احتضنت يد (أميرة) بيدها... ورحلا معاً.

****

بإحدى غرف مستشفى عين شمس التخصصي رقدت (مريم) بفراشها بانتظار مولودها... وبجانبها والدتها.

- ماما... أنا حاسة اني هموت... مبقتش قادرة.

- معلش يا حبيبتي... هانت... الدكتور جه خلاص.

- يااارب... يااارب.

لماذا لا نذكر الله بكل وقت؟... لما لا نتلو اسمه إلا عندما تضيق بنا الحال وتتأزم المو اقف؟!..

هل لأننا نوقن بأنه لا ملجأ لنا سواه؟! أو أنها فطرة إنسانية؟

كان الطبيب قد وصل للتو... أمر الممرضات بأخذها لغرفة العمليات.

كانت حالة (مريم) من أغرب حالات الولادة التي شهدها الأطباء إن لم تكن أغربها... بعد خروج الجنين من رحمها ذهل الجميع.. سبح البعض والآخر استعاذ بالله من الشيطان الرجيم.. طفل يولد بقدم واحدة عيناة بيضاء تماماً.

لا يوجد به نبض واكتشفَ فيما بعد أنه بلا قلب.. دمية نبتت تسعة أشهر بقدرة الإله وحده..

ثم ماذا.. لم يشأ الله لها أن تستمر على قيد الحياة.

- أنا اسف... حاولنا ننقذ الجنين وربنا ما أرادش.

المدام كويسة تقدري تشوفيها بعد عشر دقايق.

كان ذلك ما قاله الدكتور لوالدة (مريم) مدام (ألفت) من حظهما الجيد أنهما لم يريا الطفل... لم يدركا أنه كان ملعوناً... لعنة خفية أصابتها ربما كان درساً يستحق الاستذكار.

ذنباً قد كُفِر... انتقام عاد لصاحبه مرة أخرى.. لم يدركا ذلك إلا متأخراً.

لكنة لم يكن سوى باباً لنهاية جديدة غير متوقعة بالمرة.

****

في منزل (عبير).. جلست الفتاتان بغرفتها.

- بصي أنا معرفش إيه الحاجات اللي مفروض اعملها علشان ادخل المسجد.. فمتحرجنيش بأي سؤال.

- ماشي.. أولا عليكي بارتداء الحجاب والملابس الفضفاضة.

- بس انا متعودتش عليها.

- سيعجبك ارتداؤها وثانياً لا يليق بالفتاة المسلمة ارتداء مثل هذه الملابس.

نظرت (أميرة) لنفسها في المرآة تتأمل الجينز الذي ترتديه وتلك البلوزة التي كشفت ذراعيها..

ثم عادت بنظرها لعبير قائلة.. طب البس ايه؟!

أخرجت ثياباً من ملابسها ثم أشارت عليها أن ترتديها.. ترددت (أميرة) في بادئ الأمر لأنها لم تعتد على مثل هذه الملابس من قبل.

خرجت (عبير) من الغرفة تاركة (أميرة) تبدل ملابسها..

بدلت (أميرة) ملابسها وارتدت حجاباً كان برفقة الثياب.. تأملت نفسها.. لم تكن بمثل هذا النقاء من قبل.. لوهلة أحست نفسها ملاكًا منزلا من السماء.. خرجت من الغرفة لتجد (عبير) بانتظارها وعندما رأتها وقفت واضعة يدها على فمها من الإعجاب والدهشة.. لم تكن تتوقع أن تكون بمثل هذا الجمال.. قالت بفرح يغمر قلبها:

- واااو ما أروعك!

- مش شايفة انه قصير شوية؟!

ضحكا معاً ثم استطردت (عبير) قائلة:

- سنشتري لك ملابس أنيقة تليق بملكتنا الجميلة.

- أخجلتم تواضعنا.. بجد مش عارفة أشكرك ازاي.. احتضنت كل منهما الأخرى وذهبتا لشراء بعض الثياب لـ(أميرة).

** ***

في مكتب عميد كلية صيدلة عين شمس.. يجلس (شريف) موازياً لمكتب د. مصطفى عميد الكلية.

بينما داربينهما حديث حاد:

- موظفين شيء وإن الطلبة اشتكوا منك يا (شريف) تقدرتقولي ليه؟!

- طالما هما اشتكوا أكيد قالوا السبب؟!

- أكيد بس أنا حابب اسمع منك.

- و انا معنديش حاجة أقولها.

- أنا محتاج تفسير... إيه سبب اهتمامك بالطالبة دي.. اسمها (أميرة) تقريباً.. ليه أخدت ملفها!

- دي حاجة تخصني أنا.. وهجيبها لو من تحت الأرض.

- أنا مضطر أحولك للشئون القانونية وه...

- إنت متقدرش تعمل حاجة.. إنت مجرد بشري ضعيف لا حول ليك ولا قوة.. كان صوت (شريف) قد تغير.. ازداد طوله وحجمه.. وخرج من جسده بروزونتوءات.. تحولت لون عيناه للأحمر الدموي... ارتعد د. مصطفى واختبأ خلف مكتبة.. وعندما نظر مرة أخرى.. لم يجده.. خرج مسرعاً من مكتبة طالباً رجال الأمن.

****

أعلم أن الأمور لم تضح كلياً لديك لكن ما تفكر به صحيح.. (شريف) ليس سوى خادم من الجن مهمتة الوحيدة هي الشر.. يتفنن في نشر الفساد ولم يكن دوره في حياة (أميرة) إلا أن يفتح لها طريقاً مظلماً.. يزين لها سوءاً... يريد تدمير حياتها حياة لا تكترث لها... لطالما أراد أن يصبح يوماً ما بقوتها... يحصل على شأن ومكانة في عالمه كما فعلت هي: لن ينتظر حتى تعود من سفرها.. سيبحث عنها.. عن الهلاك الذي سيودي به للجحيم.

*****

* ارتدت (أميرة) ثيابها وحجاباً لم تكن تتوقع أن ترتدية يوماً من الأيام.. ذهبت للشيخ يعقوب الذي قبل جبينها وباركها بدعوة أراحت قلبها.

أخبرها بعنوان مسجد ابن عثمان ذلك الذي يقع بالقرب من سوق السكافية والمربعة بالبلدة القديمة.. في أول حارة العقابة وفي الطريق المؤدي للمسجد الإبراهيمي.

حيث بناه (أحمد بن عثمان) الذي ولد في نابلس.

عندما وصلت.. وقفت أمام باب المسجد وسألت أحد المصلين الخارجين عن الإمام حسن...

أشار لها على رجل ستيني العمر يجلس أمامه مصحف.. فالتف لها.. وعلم أن هناك خطبا ما.. صدق وأغلق كتاب ربه وذهب لها.

- ما الأمر يا ابنتي هل أصابك سوء؟!

- جيت لحضرتك في حاجة تخص بابايا.

- ومن هو والدك؟

- عيسى صلاح يعقوب.

ابتسم الشيخ قائلا:

- اتبعيني من هذا الرواق.

* إنه الرواق الغربي حيث قبر الأمير سيف الدين يلخجا الذي تولى نيابة غزة عام ١٤٤٥ ودفن بالمسجد.

توقف عند غرفة في آخر الرواق ثم أردف:

- سنجلس هنا بعيداً عن المصلين.

كيف هو والدك الآن؟!

- بابا مات من فترة. قالتها بحزن.

- إنا لله و إنا إليه راجعون. علمت ذلك مؤخرا.

لقد كان من أحب الناس إلي قلبي.

ماذا تريدين؟

- عايزة أعرف كل حاجة عن بابا.. عيشت حياتي كلها من غير ما اعرف حتى هو منين وأهله مين وفين.

أرجوك جدو قالي ان حضرتك هتفيدني.

يا ريت متخذلنيش.

ابتسم الشيخ قائلاً: سأخبرك لكن عليكي أن تعديني بشيء أولاً...

- حاضر.

- أن تسامحي أباك.

طأطأت رأسها قليلاً ثم قالت: أوعدك.

- كان لوالدك صديق مقرب.. على الأحرى صديق وحيد اسمه نور الدين ابراهيم عبيد... تشاركا الطفولة بكل تفاصيلها.. كبرا معاً رغم اختلاف مدينتهما.

كانا كل شيء في حياة بعضهما البعض... فكما تشاركا في السمر والسهر واللعب... تشاركا أيضا في العبادة... الصلاة في جميع أوقاتها والصيام والزكاة وكل شيء.. في اليوم المنصف لشهر رمضان كان يقابله يوم ٢٥ فبراير ١٩٩٤... اتفقا أن يتقابلا كعادتهما لصلاة الفجر انتظر نور الدين (عيسى) أمام المسجد حتى أقام الإمام الصلاة.. في حين كان الأخير قد غلب عليه نومة ولم يستيقظ إلا على خبر موت صديقة الوحيد على يد الملعون باروخ جولدشتاين الذي تواطأ مع عدد من المستوطنين والجيش في صف المصلين.. حيث أطلق عليهم النار أثناء أدائهم لصلاة الفجر يوم الجمعة في منتصف الشهر الكريم والذي قتل ٢٩ مصلياً وجرح ١٥٠ مصلياً آخرين... قبل أن

ينقض عليه مصلون آخرون ويقتلوه... وسمي هذا اليوم وهذة الحادثة بـ"مذبحة الحرم الإبراهيمي".

كانت لهذة الحادثة تأثير صادم في نفس والدك جعلته شبه مقيم بالحرم الإبراهيمي.

حيث كان يذهب كل ليلة بعد منتصف الليل حتى آذان الفجر... قال لي ذات يوم إنه كان يتسامر مع نور الدين الذي حثه على أخذ حقه.. فقرر الانتقام.. ولكنة انتقام من نوع آخر... فبدأ في استحضار الجن وتعلم كيف يسيطر عليه ويجعله ينفذ جميع أوامره.. أراد أن يدمر الكيان الصهيوني... بعث لهم بمرض لعين لم نعرف له اسمًا حتى الآن... أصاب العشرات ثم اختفى... ظهر بعد ذلك سم استخرجه من نبتة العشر أو العشار ومعناها (شجرة الجن) وهي نبتة صغيرة توجد في الصحراء عصارتها اللبنية تسبب هذيان وسرعة النبض وتشنجات وضعفا في البصر وهبوطا بالقلب ثم الموت.

استخدمة لفترة طويلة مع الجنود وغيرهم وكل من يموت يعد قرباناً للجن الذين يسخرهم حتى علم والده بهذا السوء الذي يفعله...

هددة كثيراً بأنه سيغضب عليه إن لم يوقف هذه المهازل.. ولم يتحمل عصيان والده.. ولم يستطع تفسير ما يفعله... فهاجر من بلده تاركاً خلفه آلاما لا حصر لها وذكريات لن تمحوها السنين.

ولم أخبر أحداً سوى جدك يعقوب والآن قد أتيت أنتِ.

- يعني بابا مكنش عاوز يعرفني بلده وأهله علشان كده! كان بينتقم من اليهود! يعني طنط ميريت ماتت علشان يهودية... كده كل حاجة بانت وبقت واضحة... كل مكان كنا بنروحه كان بيقتل اليهود اللي فية وبيقدم روحهم قرابين للجن!

طب إيه الدين اللي كان عاوز يسدده؟!

- يتصالح مع أهله وينقي نفسه وكان يعلم أن هذا الطريق سيغضب الجن.. لتلك الدرجة التي توصلهم لقتله وأخذ روحة قربانا وكمكافأة لنهاية خدمتهم.

وهناك شيء لا بد لك وأن تعلميه.. أحد أتباعه المنبوذين من الجن يود الانتقام منكِ... كان يلازمك كثيرًا والآن يبحث عنك لكنه لا يعرف لكِ مكانا ربما وضع الله بينكما حاجزاً حتى لا يؤذيك.

كان بيلازمني إزاي... ملبوسة يعني؟!

كان على هيئة بشر.

(شريف).. دكتور عندي في الكلية... وكان فعلاً بيلازمني الفترة الأخير دي.. يعني (شريف) مطلعش بني آدم؟!

هه يا حلاوة! طب و انا هعمل إية دلوقتي؟!

- ما تفكرين به سيحدث كما تريدين تماماً.

- شردت قليلاً ثم لمعت بعينيها لمعة انتقام.

- شكراً لحضرتك.. تعبتك معايا.

- أرجو ألا ترهقي نفسك الفترة القادمة.

- أومأت برأسها إيجاباً ورحلت فيما كان الإمام حسن يراقبها حتى توارت عن نظره.

*****

قررت (أميرة) العودة لمصر لتنهي حياتها القديمة ولتقدم هدية بسيطة لمن كانت السبب بما هي عليه الآن.

عادت لمنزل جدها يعقوب... الذي قرأ بعينيها تشتتاً... وتساءل عما يدور بداخلها... أخبرته عن كل شيء قاله لها الإمام حسن.. ابتسم قائلاً:

هناك شخص يود رؤيتك ثم نظر خلفها.

التفتت لتذهلها المفاجأة.. رجل يشبه والدها كثيراً.. تقدمت بضع خطوات ثم وضعت يدها على وجهة تتحسسه... فرت دمعة من عينيها...وأردفت:

- بابا!

- أنا جدك صلاح... لم أكن أعلم أن ابني صار شبيهاً بي لهذه الدرجة!

نظرت لجدها يعقوب الذي أومأ برأسه لها.

- فاحتضنته باكية... بابا وحشني أوي.

ربَّتَ على كتفها لتطمئن أنهم سيظلون دائماً بجوارها... سيعوضون غيابهم الغير مقصود..

جذبها من يدها إلى طاولة الطعام التي جلس عليها هو وعائلته.

انتصفت الطاولة وجلست على الكرسي الوحيد الذي ترك لها... تأملتهم جميعاً... (عبير) التي كانت تهامس مع والدتها... ووالدها الذي ساعد جدها على الجلوس.. دفء العائلة... لا يعوضة شيء.. لطالما أرادت أن ير افقها والداها في هذه الجلسة السعيدة الهانئة.. ابتسمت عندما رأت طيفاً والديها حول المائدة.

*****

* ما أصعب أن تكون تائهاً في غابات آلامك!

ضغيف كغزال يرى مصيرة الحتمي في عيني لبؤة تترصده.. مشتتة مشاعرك كغصون الأشجار.. تهب رياح الشوق والحنين تارة.. والقسوة والألم تارة أخرى.

على كل هي رياح باردة جليدية.. تجمّد الأعصاب وتحيط القلب بهالة من ثلج... ثلج لا تذيبه شمس الندم والاعتذار.. يكفي أنك لا تتحدث في حضرة اليأس.

بل تتركه يأتي ويرحل في سلام.. تراقب خطوات الأمل وبجانبه التفاؤل يلهث متعباً... ذلك متباعد الخطى والأخير تعب من طول المدى.. ضجيجٌ لا صوت له.. يهز أعماق كيانك ويثير تشتتاً وفرقة في أوصالك وأنت من الخارج كائن صُلب لقّب بإنسان.. له عينان وأذنان.. بين شفتيه المبتسمتين تجمد اللسان.

****

"الخيال هو كل ما أملك.. فهو يأخذني للجنة.. وللجحيم.. وإليك"!

****

بعد عودة (أميرة) لمصر دوّنت كل ماعرفته عن والدها من جدها يعقوب والإمام حسن، واختصت جزءا من الكلام تحت عنوان واحد: "في الحَرَم استُبيحَتْ الحُرُم"!

لم يكن ما عرفته عن والدها بالأمر الهين.. أرادت أن تلقن بعض الناس درساً قاسياً انتقامًا لوالديها.. كانت بدايتها.. هي نفس البداية التي اتخذها الجميع.. والدتها الحقيقية ووالداها اللذان ربياها وهو المزعوم "أبو الفضل"!

بحث طال لشهرين ونصف.. حتى عثرت عليه.. كانت قد عاهدت نفسها ألا تسخر أحداً من الجن لكنها لم تستطع الانتظار والبحث طويلاً.. فقط مجرد التفكير في شيء يأتي لها الرد مفصلاً.

لم تنتظر المزيد من الوقت فذهبت له في إصرار منها على الانتقام.

*****

* تلك الجدران المهترئة والحوائط التي تنازل طلائها عنها.. الضوء الخافت الذي يرتعش من حين لآخر.. يعلن استسلامه وينطفئ محترقاً حتى لا يشهد كارثةً سفلية.. ومعارك ستودي به منفجراً لا محالة.

خطوات ثابتة... يعلم صاحبها أين يذهب كأنه يخطوها كل يوم وكل ساعة.

أنفاس حارة تكاد تخنق المارة.

كهل يجلس مطأطأ الرأس.. ينتظر قدوم ضيف عزيز... يقتحم الباب.. تتلاقى الأعين.. فيسود الصمت.. صمت يشبه هدوء المقابر.

- كنت مستنيكي من زمان يا (فريدة).

- اسمي (أميرة).

- مش هنختلف المهم اننا عارفين انتي مين.

- ابتسمت (أميرة) ابتسامة خبيثة.. ماكرة ثم أردفت:

- لو كنت تعرف أنا مين فعلًا كنت عملت حساب لليوم اللي هقابلك فيه... خطت بضع خطوات داخل الغرفة التي لا تختلف كثيراً عن خارجها.. ثم نظرت لتلك النيران المشتعلة بداخلها.. رفعت يديها ثم أحكمت قبضتها فانطفأت.. أراحت قبضتها قليلاً ثم أدارتها في الهواء فانتفضت النيران من جميع أركان الغرفة.

في حين نظرت في عيني الكهل:

- دلوقتي نقدر نتكلم براحتنا.

- يا بنت المجانين.. الأوضة بتولع وبتقوليلي نتكلم!

- متماطلش.. محدش فيهم هيجي ^_^

- مين دول؟!

- اللي انت بتحاول تحضرهم دلوقتي.. انت فاكر ان في حد هيقدر ينقذك مني؟!

هههه... ابليس نفسة زمانه بيقرى آية الكرسي.

- إنتي عايزة إيه؟!

- الطلسم والتعزيمة اللي كتبتها على بطن الست اللي ولدتني!

- الحاجة (ألفت)؟! الطلسم لسه موجود على بطنها والتعزيمة مش فاكرها.

هه! ابتسمت بسخرية ثم أدارت ظهرها له.. إنت هتفتكر بالذوق ولا تحب أتسلى عليك؟! لم تنتظر رداً منه.. فقط بدأت حفلتها الصاخبة بمفردها.. احتد صوتها.. تغيرت عيناها حتى اصبحت أظلم من سواد الليل.. رفعت ذاك الكهل من جلبابه فانفرطت جميع القلائد التي كان يعلقها بعنقه... دفعته للحائط حتى نشبت النار بثيابه... سقطت منه صورة لفتاة صغيرة وخلفها كتابات ورسوم تفهمها جيداً.. أخذت ما احتاجت إليه ورحلت.. لم تمر ثوانٍ بعد خروجها حتى تفحم المنزل بالكامل ولم يعد لـ(أبو الفضل).. فضل على أحد.

نفضت بعض الغبار عن ثيابها ثم رحلت بهدوء كأن شيئاً لم يكن.. ذهبت لترى المرأة التي حملتها أشهر في رحمها ثم لفظتها لأخرى.. لأن صدرها لم يكن ليتسع لاحتضان صغيرتها الملعون'.. شاهدتها عن كثب.. عرفت تفاصيل حياتها.. وحياة ابنتها (مريم)... ابتسمت وقررت البعد عنهما لفترة.. حتى تقرر ما تنوي فعله بحكمة.

مرت أيام وهي تبحث عن (شريف) بل كانت تنتظر قدومه.. حتى تبيده كما أبادت (أبو الفضل)... لم يمر الكثير حتى أتاها كما أرادت.. دخان كثيف كما رأته أول مرة لكنها لم تكن تدرك أنه لكائن لعين.. لم تكن تعلم للخوف طريقاً بعد الآن.

ابتسمت... بهدوء تام.

الابتسامة هي الشيء الوحيد القادر على تشتيت خصمك.. تمحو لغة جسدك.. تبدل ما تنويه بداخلك.. فقط ابتسم وسيحتار العالم بأمرك!

- ازيك يا دكتور ولا تحب اقولك يا (شريف)؟

أظن اسمك الحقيقي أحسن "ظام" مش كده لو ضيفنا له لام هيبقي لايق عليك أكتر.

وقفت في مكانها في حين قصت بعضا من خصل شعرها.. وأحرقتها ورسمت بترابها دائرة حوله.

- إنتي بتعملي إيه؟!

- هتشوف بعينك اللي عمرك ما شوفته.

قالت بعض الكلمات بسرعة شديدة وكأنها حفظتها منذ الصغر... جلبت أور اقاً وأحرقتها ووضعتها على خط الدائرة ولم تنقطع شفتاها عن ترديد ما تقوله.. فقط صاح (شريف).. وتغير شكلة عدة مرات.. دخان.. ثم بشري.. ثم هيئته الحقيقية لم تكن سوي هيئة بشعة... شيء مقزّز يتحرك داخل دائرة.. احتجزته (أميرة) بداخلها.. كانت بمثابة حائط زجاجي يمنع مروره.. أحاطته بكل قوتها.. ثم أحكمت قبضة يدها لتنهي كل هذا.. لقد أصبح كومة من التراب الأسود المتفحم فوضعته بيديها ثم أغمضت عينيها.. رأت كل ما مر بحياة ذاك اللعين حتى توقف عند صورة معينة... مقتل والديها.. اجتاحت ذكراهما صدرها.. جلست على ركبتيها.

بكت كثيراً... صرخت بكامل طاقتها... حطمت كل ما وقع تحت يديها... اشتاقت لصدر والدتها التي حل مكانة صدر (نهاد)... ولكن أين هي الآن؟

مرت أشهر عديدة ولم أعلم عنها شيئًا.

دقت هاتفها كثيراً لكنه كان مغلقاً.. بدلت ملابسها وذهبت لمنزلها.. طرقت الباب كثيراً ولم يأتها رد... وكادت ترحل حتى خرج لها أحد الجيران.

- عاوزة حد هنا؟!

- أيوه كنت جاية لـ(نهاد)..

- والدتها تعبت من فترة وسافروا معاها ألمانيا.

- حضرتك متعرفيش أوصلها ازاي!

- لو اتصلت هقولها إنك سألتي عليها.

أقولها مين صح؟!

- (أميرة).

- ماشي يا حبيبتي اتفضلي.

- شكراً. قالتها ورحلت.. لاتدري إلي أين.. فقط تدرك كم اشتاقت لوالديها.. ذهبت لتزورهما بقبرهما.. تخرج كل شيء بداخلها.. جميع الأخطاء التي ارتكبتها.. لن تخاف هذه المرة من عقاب والدها.. فقط ستخبره بكل شيء.. ستبكي لوالدتها.

وتحكي لها عن جرح بقلبها...

ستدرك أنها بدونها لا شيء..

ستسامحهما على كل شيء...

تحتضن قبرهما علهما يسمعان نبض قلبها الثائر...

تتمنى لو يعودا ليوم واحد وترحل معهما بعد ذلك.. قد تفقد أحد والديك ويصبح لديك ثغرة بقلبك فماذا لو أصبت بثغرتين عميقتين لن يمحوها الزمن ولن يستبدلهما النسيان بشيء آخر... إما هما أو لا؟

- تتجوزيني؟!

كانت تلك رسالة من (عمر) على هاتف (مريم) التي قرأتها للمرة العشرين بعد المليون.. لم تصدق ولكنها تريد ذلك وبشدة.. لطالما كان ذلك حُلمَ حياتها منذ أن تعرفت عليه في المرحلة الثانوية.

- ردت عليه برسالة أخرى:

"و أتوا البيوت من أبوابها" أول مرة أعرف إنه بالموبايل.

- هو انا عارف لك مكان؟!

- أنا عند ماما في بيتنا القديم.

- اعزميني عندكو بكرة الساعة ٧ على شربات.

- معندناش.

- خلاص اجيبه و أنا جاي.

ابتسامة تكاد تصل بجانب شفتيها حتى خلف عنقها!

ما أجمل أن يتحقق أحد أحلامك.. حتى لو تأخر قليلاً.. ممم كثيراً ربما تأخر كثيراً جداً لكنه بالنهاية على وشك أن يصبح حقيقه.. أجمل حقيقة قد تشهدها.

*****

السابعة مساءً بمنزل (مريم).

نظمت الكؤوس والأطباق... رتبت منزلها مع والدتها.. ارتدت فستاناً قصيراً له لون الروز من درجات اللون الوردي... رفعت شعرها لأعلى وثبتته بدبوس للشعر على شكل فراشة كريستالية... وضعت القليل من أحمر الشفاة نوعية ال "nude" في حين دق جرس المنزل.

- افتحي يا ماما... دا أكيد (عمر).

- حاضر هفتح أهو.

- كان الزائر آخر شخص توقعا رؤيته.

- مكنش يصح أسيب اختي في مناسبة جميلة ومهمة زي دي.. ثم مدت يدها لتصافح والدة

(مريم).. التي ترددت قبل أن تمد يدها هي الأخرى.

- مين يا ماما؟!

- خرجت (مريم) لترى الفتاة نفسها التي قابلتها في كافية وسط البلد.

- (فريدة)؟! "قالتها (مريم) بتعجب".

نظرت والدتها باستنكار.. ثم أردفت:

- إنتوا تعرفوا بعض؟!

- دي (فريدة) يا ماما اللي حكيلتك عنها قبل كده.

- آه... افتكرت.

- قاطعتهم (فريدة) قائلة:

- أنا كنت جاية أبارك بس.. واخد السلسلة بتاعتي.. اللي معاكي يا (مريم).. أومأت (مريم) برأسها إيجاباً متعجباً.. وذهبت لتحضرها.

- إيه اللي جابك هنا؟ قالتها والدة (مريم) بقلق.

- متقلقيش أنا همشي ومش هرجع تاني.

بس جيت أخد حاجتي.. مظنش وجودها هيبقى كويس بعد كده.

- بصي أنا آسفة على أي حاجة حصلت مني.

وضعت (فريدة) يدها على فمها و ابتسمت:

- إنتي عملتي.. و أنا عملت.. وكلنا عملنا.

مفيش داعي للاعتذار.. ثم همست بأذنها:

أشوف وشك بخير يا ماما ^_^

عندما وقفت (مريم) بمواجهتهما... وجدت دموع أمها على وجنتيها... ومدت يدها بالقلادة لـ(فريدة).. متسائلة:

- مالك يا ماما؟!

- مفيش يا حبيبتي.. تراب دخل في عيني بس.

ابتسمت (فريدة) ثم رحلت.

مسحت (مريم) عيني والدتها.. عندما دق جرس الباب وقف بمواجهتهما (عمر) مصطحباً معه ثلاثة أفراد.

نظر لهما (عمر) مستنكراً:

- و اقفين على الباب كده ليه؟!

- مستنيينك يا عريس. قالتها والدة (مريم).

ثم ضحكت.. لتلطفت الجو قليلاً.

- اتفضلوا... ولا هتفضلوا و اقفين على الباب كده؟

نظر (عمر) لـ(مريم) التي أخجلتها نظر اته.

- إنتي احلويتي كده ليه؟!
- عيونك اللي حلوة.. ^_^
- هنشوف الموضوع دة بعدين.. ثم غمز بعينه.
- يلا يا بنوتي علشان المأذون والشهود مستنيين.

- ضحكت بخجل... يلا يا راجلي.

** ***

فبراير ٢٠١٧

على تلال فلسطين انتشرت الخضرة بتناسق مبهج.. باعثة الراحة والهدوء في النفوس.. ذاك الذي اعتادت عليه (أميرة) في الأعوام الماضية.. تجلس على أحد الصخور.. متأملة غروب الشمس... شاردة في خواطرها.

عندما قاطعتها (عبير)!

- ممكن أقعد معاكي؟!

ابتسمت (أميرة)!

- أكيد اتفضلي.. ثم نظرت بعينها!
- عاوزة تقولي إيه؟!

ضحكت (عبير) بخجل.

عندما قصصتِ عليّ ما حدث لك.. لم تنهي بعض المو اقف.. مثل...

قاطعتها (أميرة) مبتسمة:

(مريم) اتجوزت (عمر) وعندها (فريدة) دلوقتي!

(مروان) طلق (ناني).. وحبستة بالشيك اللي كتبه على نفسه!

(ياسمين) بتتعالج وقربت تخف خالص!

و(نهاد) اطمنت عليها وبنتكلم من فترة للتانية!

و أنا استقررت هنا.. في فلسطين نبض العالم العربي!

- إنتي لسة بتقرأي الأفكار؟!

ضحكت بصوت مسموع...

- لا... بس سهل أتوقع أسئلتك ^_^

- نسيتي تقولي (أحمد) حصل له إيه.

نظرت (أميرة) خلف (عبير) و ابتسمت.. ثم رفعت حاجبيها بمرح!

عندما وقف أحدهم حاجباً ضوء مغيب الشمس مبتسماً بغمازاتيه.. وأردف:

- مرحباً.

دهشت (عبير) ونظرت لـ(أميرة) متسائلة:

- بس.. كيف؟!

رد (أحمد) مجيباً عن تساؤلاتها:

لما (أميرة) سابتلي الرسالة.. كانت بتحكيلي فيها اللي حصلها بإيجاز وكمان سابتلي بطاقة وباسبورروعليهم صورتي بس باسم بكر.

بعدها بشهر أنا جيت فلسطين واشتغلت وكنت مستنيها ترجعلي.

منا قولتلك يا (عبير):

في حاجات في حياتنا صعب جدا نتنازل عنها.

يعني الموضوع كتير ملخبط.

إنت (أحمد) و(بكر) و انتي (أميرة) و(فريدة)!

إيه رأيك في (بكر) و(فريدة) ونبدأ حياة جديدة؟

قالها (أحمد) لـ(أميرة).

ضحكت الفتاتان.. ورحلا مع رحيل الشمس.

كان الشيخ يعقوب ينتظر قدومهم..

حين لاح لناظريه من بعيد تقدم خطواتهم.. حتى وصلوا.. قبل جميعهم يده وثنى عليهم بدوره..

ثم نظر بعيني (أميرة) متسائلاً: فابتسمت مبشرة له.. ربّت على كتفها متفهماً..

لم يكن يجول بخاطرها سوى مستقبل قريب..

قريب جداً..

ستشهد تحرير رقبة فلسطين من أيدي الطغاة..
قطعة.. قطعة.. مدينة تلو مدينة..
حتى تنفض جناحيها مكسّرة لكل القيود التي طبعت صدأها عليها..
تتنفس الصعداء.. أكسجين الحرية..
ستصبح نبضاً ثائراً يهابة "الجميع"..
الآن.. أيقنت تماماً أنك تعلم..
لمَ أنت جالس هنا؟
في هذه اللحظة وما الذي تنوي فعله؟
فلربما شاء القدروتوحدت أمنياتنا جميعاً..
- (فريدة)!
قالها الشيخ يعقوب مقاطعاً لشرودها.
- قصدك (أميرة)؟
- لكني أري أن لعينيكي قولًا آخر.. و أتبع جملته بغمزة من عينيه!
ابتسمت ابتسامةً ماكرة.. تدرك ما ترمي إليه كلماتها.

شكر..

أود أن أتقدم بالشكر والتقدير لكل من آمن بهذا العمل
و أبدأ بمن شجعني على إخراج بعثرة قلمي للنور..

وتقديري العظيم لصديقتي (عبير طنينة)
التي كانت بمثابة مرجع لي والتي آمنت بي بلا توقف...

كما أقدم امتناني واحترامي للكاتب الرائع (أحمد مراد)
الذي لطالما احتذيت به

وللمذيع المتألق والمعلم (أحمد يونس)
الذي كان بمثابة قدوة عظيمة بحياتي..

في النهاية...
لا بد لي أن أقبل يد أمي التي عانت كثيراً لأجلي
وكذلك تحياتي لصديقتي (ياسمين)
التي لم تتوانَ عن تقديم النصائح لي دائماً.
لكل من ساعدني مادياً أو معنوياً مرة أخرى
وليست أخيرة.. شكراً!.

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية و أفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

Gmail arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook facebook.com/arabiclibrary2017